كمال رفعت

ناصريون؟

نعم

الفهرس

ما هي الناصرية ومن هم الناصريون ؟

كثرت حملات بعض رجال الدين وبعض قوى اليمين على الناصرية والناصريين ، باعتبار الناصرية ضد الدين أو أن الناصرية أحد القوى المضادة للدين مثلهم مثل الشيوعيين ؟

ما هي قوة الناصريين شعبيا ومدى قدرتهم على الحركة والتأثير فى الجماهير ؟

ما هي الاشتراكية في الفكر الناصري ؟

ما هي وجهة نظر الناصرية في حتمية الصراع الطبقي ؟

ما هو دور الناصرية في العالم العربي .. وكيف تلعب دورا نشيطا ومتناميا ر حركة القومية العربية التي فجرها جمال عبد الناصر ؟

أنشأ عبد الناصر وشارك في قيادة مجموعة عدم الانحياز . هل يوجد انحسار لهذه الحركة ؟ وما دورها في العالم بعد التغيرات الدولية الأخيرة والتي لم يشهدها عبد الناصر ؟

ما هو موقف الاشتراكية في الفكر الناصري من الأممية والإنسانية ؟.

ما هي الناصرية ومن هم الناصريون ؟

قد يعتبر البعض هذا السؤال سؤالا ساذجا .

ولكن هناك هجمة شديدة تشن من اليمين وأحيانا من اليسار على الناصرية والناصريين وتحاول هذه الهجمات من ناحية اليمين تشويههم باعتبارهم بقايا مراكز القوى أو اعتبارهم ماركسيين. ومن ناحية اليسار تشويههم باعتبارهم مؤيدين للإرهاب والدكتاتورية أو المتأثرين بلا وعى بشخصية عبد الناصر دون اقتناع فكرى .

وبالتأكيد فإن لمحاولات التشويه هذه تأثيرها على معرفة الجماهير – ومنها جماهير الطلاب – للحقيقة حول الناصرية والناصريين ؟

كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نقطة تحول بالغة الأهمية لا فى تاريخ هذا البلد فحسب ، وإنما فى تاريخ المنطقة العربية بأسرها أيضا. ثم ما لبثت أن كانت من القوى الفعالة والمؤثرة على الصعيد الدولى بحكم أهدافها وحيويتها وأفعالها .. ومن هنا يمكننا اعتبار أن الفلسفة الكامنة وراء هذه الثورة هى من الطراز الذى يتخطى الحدود الإقليمية للبيئة التى وقعت فيها هذه الثورة.

والناصرية التى كانت تعبيراً عن ثورة يوليو – ليست مجرد فكر نظرى ، بل أنها قبل ذلك واهم حركة جماهيرية استطاعت أن تطبع بصماتها على الواقع المصرى والواقع العربى . كما كان لها تأثير واضح على حركات التحرر فى العالم الثالث . وحينما نريد أن ندرك أبعاد الناصرية ، لا يكون ذلك بدراسة وتحليل لكتابات وخطب وأقوال الزعيم جمال عبد الناصر ، وإنما يكون أيضا بالعودة إلى الأعمال التى قام بها ونفذها بالفعل .

وقد ترك عبد الناصر تراثا يعتبر مرجعا أساسيا إذا جاز التعبير توضح لنا ما هى الناصرية :

أولا: نصوص مكتوبة يأتى فى مقدمتها الميثاق وبيان ٣٠ مارس وخطبه وأحاديثه الأساسية فى المناسبات الكبرى.

ثانيا: نصوص تطبيقية مكتوبة فى صورة القوانين والتشريعات والقرارات التى رسمت المعالم الأساسية للمجتمع العربى المتجه إلى الاشتراكية.

ثالثا: مواقفه السياسية فى مواجهة شتى أنواع التحديات السياسية والاقتصادية والعسكرية ، المحلية والعربية والدولية .

هذه الأمور الثلاثة – دون الدخول فى تفاصيل – تشكل معالم الفكر الناصرى أو ما يطلق عليه اسم الناصرية .

وإذا كان المجال هنا ليس متاحا لسرد كافة نواحى الفكر الناصرى والتى أبرزنا أهم ملامحها فى بيان المنبر الاشتراكى الناصرى . فأنني أستطيع القول أن الناصرية تقوم فى أساسها على عدة مقومات :

- **الإيمان بالله ومبادئ الأديان**
- **الإيمان بالقومية العربية والوحدة العربية**
- **إن الناحية المادية ليست هى العامل الوحيد فى تطور المجتمع وأن الفكر ليس مجرد انعكاس للواقع المادى القائم . ولكن القيم الروحية والفكر الإنسانى لعبت وتلعب دائما بجانب الناحية المادية دوراً كبيراً فى تطور العالم . وأن التفاعل بين هذه النواحى الثلاث هو الذى يؤدى إلى تطور المجتمع**
- **الإيمان بالإنسان كصاحب فكر يستطيع أن يلعب دورا أساسيا فى تطور المجتمع . وأن يصوغ القوانين الاجتماعية التى تحقق ذاتيته وشخصيته فى إطار المجتمع .**
- **إن حرية الإنسان ترتبط بمتطلبات وجوده وذلك بأن يتحرر من الفقر والحاجة أى أن يكون لديه الاكتفاء الاقتصادى . وأن يتحرر من الجهل فان المعرفة شرط من شروط التمتع بالحرية . وأن يتحرر من الخوف بحيث يكون آمنا على يومه ومستقبله.**
- **الارتباط بالتراث . أى الربط بين الفكر الإسلامى والفكر القومى والقضاء على التناقض المفتعل بينهما والذى تستخدمه القوى الرجعية لضرب الفكرة القومية ومبدأ الوحدة العربية.**
- **التفاعل مع مكونات الحضارة الحديثة والانفتاح على الفكر العالمى ليكون ذلك عاملا من عوامل التقدم العربى**
- **النظرة العلمية الشاملة لمشاكل المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية**
- **حتمية الحل الاشتراكى حيث أصبح هو الطريق المفتوح – فى ظروف مجتمعنا لأحداث التنمية الشاملة فى المجتمع على أساس علمى**
- **تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع فى نطاق تحالف قوى الشعب العامل**

وكما كانت الناصرية بالنسبة للقواعد الشعبية راية نضال ، كانت بالنسبة لبعض الزعماء أو المتزعمين والانتهازيين ومحترفى السياسة مادة للتجارة ، يأخذون منها ما يناسبهم ويدارون ما لا يناسبهم ، وفى أحيان كثيرة لعبوا أدواراً تخريبية للناصرية ذاتها باسم الناصرية. أولئك الذين كانوا لا يفيدونها ، ولكن كانوا يستثمرونها لتحقيق مآرب سياسية محلية أو مآرب شخصية. ومن هنا ظهرت بعض الأخطاء والسلبيات التى يحاول البعض استخدامها لإجهاض أكبر حركة ثورية فى تاريخ الشعب المصرى والشعب العربى.

وعلى العموم فإن الناصرية هى حصيلة تجارب وصراعات الشعب المصرى ضد الاستعمار والإقطاع والرأسمالية المستغلة طيلة قرن من الزمان . وكان عليها أن تتزامن مع حركة العصر الذى نعيش فيه عصر انتصار الاشتراكية عصر الثورة السياسية والثورة الاجتماعية والتى كانت إحدى النتائج الكبرى للحرب العالمية الثانية .

وكان على الناصرية لكى تشق طريقها بنجاح على الأرض المصرية أن تواجه تحديات الاستعمار والرجعية فى المنطقة العربية باعتبار أن مصر تؤثر وتتأثر بما يجرى حولها من أحداث. ومن هنا تكلم كتاب "فلسفة الثورة" عن الدوائر التى تعمل فى إطارها الثورة المصرية ، وهى الدائرة العربية والدائرة الإسلامية والدائرة الإفريقية.

إذا فالناصريون ليسوا مجرد بقايا لمراكز القوى أو من مؤيدى الإرهاب والدكتاتورية أو من المتأثرين بلا وعى بشخصية عبد الناصر دون اقتناع فكرى . بل إنهم مناضلون فى سبيل مبادئ وقيم عبر عنها عبد الناصر وظل يكافح ويناضل حتى استشهد من أجلها . ناضلوا من أجل مصر وقوميتهم العربية على طريق الناصرية، ولم يتخذوها وسيلة للإثراء أو للجاه والسلطان كما فعل البعض. لم يتلونوا ويغيروا من مبادئهم وفق الظروف والأحوال وحسب التبديل فى مواقع مراكز القوى ، بل ظلوا مرتبطين بالجماهير فى نضالها من أجل حريتها ومستقبل حياتها .

ولعله من المفيد فى هذا المجال أن تعلم جماهير الشباب والطلاب – الذين لم يعاصروا قيام ثورة يوليو المجيدة أن جيل الثورة استطاع أن يحقق جلاء الاستعمار البريطانى بقواعده وجنوده عن مصر بعد معارك مريرة على أرض منطقة القنال بعد احتلال دام أكثر من سبعين عاما . وأن يحقق شخصية مصر العربية بعد أن حاول الاستعمار والرجعية طمسها وعزل مصر عن واقعها التاريخى . وأن يحارب سياسة مناطق النفوذ فى الوطن العربى ويحطم الأحلاف العسكرية وعلى رأسها حلف بغداد . وأن يقود الثورة الاجتماعية ، ويحدث تحولا عميقا فى الواقع المصرى ، ويغير خريطة مصر كما لم تتغير فى كل تاريخها . وأكد تحقيق سيطرة الشعب على موارد ثروته وعلى ناتج العمل الوطنى ، وأن يحرر الاقتصاد المصرى من التبعية بعد أن كان نهبا لقوى الاستعمار والإقطاع والرأسمالية . وأن يسترد قناة السويس التى كانت أكبر معاقل الاستعمار الاقتصادى بعد معركة دامية عام ١٩٥٦ . وأن يضع أسس الانطلاق الصناعى والقاعدة العلمية فى مصر لتكون دعامة للاستقلال السياسى . وأن يبنى السد العالى ليفرش الخضرة الخصبة على الصحراء المجدبة . وأن يمد شبكات الكهرباء المحركة فوق وادى النيل من جنوبه إلى شماله . وأن يفجر موارد البترول بعد انتظار طويل وأن يدخل فى صراع مرير ضد الحركة الصهيونية المحتلة فى إسرائيل والمدعمة من الإمبريالية العالمية ويحقق انتصار أكتوبر العظيم . وأن يحقق مجانية التعليم فى كافة مراحله بعد أن كان وقفا فقط على القادرين . وأن يحرر الحركات النقابية والعمالية والفلاحية من القيود التى عاقت حركتها لكى تساهم فى بناء المجتمع وغير ذلك من إنجازات فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية . وأهم من ذلك وضع على قيادة العمل الوطنى تحالف قوى الشعب العامل الذى هو المصدر الدائم لقيادات متجددة ، تحمل أعلام النضال الوطنى والقومى مرحلة بعد مرحلة لتبنى الاشتراكية وتحقق وتنتصر.

هذه هي الناصرية في أبسط صورها والتى تعدت أصداؤها ومبادئها ليس فقط حدود مصر وحدود الوطن العربى بل دول العالم الثالث فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

أما الناصريون فهم أولئك الذين يؤمنون بهذه المبادئ ولم يرتابوا أو يخونوها أو يلتفوا من حولها وظلوا صامدين فى مواقعهم .

ويكفى جيل الثورة يوليو ١٩٥٢ فخرا أنه حطم الاستعمار القديم بقواعده وأساليبه وعملائه ، وأن يطهر الأرض العربية منه . أن جيل الناصريين الجديد يجب أن يعى مستقبل وطنه وأمته وأن يكون قادرا للقضاء على الاستعمار الجديد الذى بدأ يزحف ويطبق بأياديه القوية على رقاب شعبنا والشعب العربى ليعيده مرة أخرى إلى مناطق النفوذ . لقد أصبح من الضرورى استمرار الثورة . فالثورة – كما قال جمال عبد الناصر ليست فورانا عاطفيا وإنما الثورة فى أصالتها : هى علم تغيير المجتمع . ولا يتغير المجتمع بالغضب على ما كان فيه وعدم الرضا بالأوضاع التى سادته ، وإنما يتغير المجتمع بتحليل علاقات القوى الاقتصادية والاجتماعية فيه ، وإعادة تشكيلها على أسس جديدة لصالح أوسع الجماهير .

كثرت حملات بعض رجال الدين وبعض قوى اليمين على الناصرية والناصريين ، باعتبار الناصرية ضد الدين أو أن الناصرية أحد القوى المضادة للدين مثلهم مثل الشيوعيين ؟

إن المبادئ التى قامت عليها الناصرية تسعى إلى أن يعيش الناس روح الدين لا مجرد مظاهره ، وأن يكون هناك تطابق دائم بين القول والفعل فى الحياة الدينية وفى الحياة العامة . وأن يكون المجتمع فى تقدمه وتطوره صورة كريمة لما أراده الله من خير للناس . وعلى هذا نص الميثاق "لقد كانت جميع الأديان ذات رسالة تقدمية ، ولكن الرجعية التى أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها ، أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين . وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكى توقف تيار التقدم . إن جوهر الأديان يؤكد حق الإنسان فى الحياة والحرية . بل إن أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرص متكافئة لكل إنسان".

ومن هنا جاء الارتباط القوى فى الناصرية بين الدين والحياة ، فالدين لا يرضى بطبقة تورث الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس ، وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم . لذلك كان من الضرورى إزالة العقبات والقيود والأغلال التى تحول دون انطلاقة الأمة إلى مستقبلها . فكان من الضرورى إعادة توزيع الأرض الزراعية وقيام قطاع عام يمثل مركز الثقل الاقتصادى فى المجتمع والقضاء على الإقطاع فى قطاع الخدمات حيث كان العلم والصحة وغيرها سلعا لا يستطيع شراؤها إلا القادر . بل إن العدل نفسه كان سلعة تشترى ، وكان الحصول عليه يحتاج إلى أتعاب ينوء بها كاهل الفقير .

إن إزالة هذه العقبات كانت حتمية وطنية وقومية ، إلا أنها فى نفس الوقت واجب دينى ، تستطيع أن تقرأه فى قول الله تعالى محددا مهمة الرسول "**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر" ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم**" (**الأعراف – ١٥٧**) .

لقد بشر النبى محمد صلى الله عليه وسلم – بالدين الاسلامى وسط بيئة جاهلية لا تعير للمبادئ أى اهتمام ، فجاء هذا الدين ليلغى حكم الطبقة وينشر الخير والمحبة والمساواة فى صفوف المجتمع . ناهيا عن الفحشاء والمنكر والاستغلال ، داعيا إلى التعاون والمشاركة بين أبناء المجتمع فى سبيل الخير والحق والعدل.

وقد ثبت فى الحديث الصحيح عن رسول الله أنه قال "الناس شركات فى ثلاث : "الماء والكلأ والنار" وفى حديث آخر "والملح" . ويلاحظ أن هذه الأشياء ضرورية لحياة الناس . وليس النص على هذه الأشياء على سبيل الحصر بل أن قواعد الشريعة تقضى بتأميم "ملك الأمة" كل ما كان مثل هذه المواد ضروريا للمجتمع . كما يكره الإسلام تركيز الثروات فى أيد قليلة فى المجتمع . لما يؤدى إليه ذلك من ترف وإفساد واستغلال . يقول الله تعالى فى كتابه الكريم "**كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**" (الحشر – ٧) وكما فى قوله تعالى "**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا**" (**الإسراء – ١٦**) ويقول المسيح عليه السلام فى بعض وصاياه ومواعظه : "**لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد**

ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال" (متى – ٦– ٢٤) وقد اعتبرت الناصرية حق العمل مبدأ أساسيا من مبادئها تطبيقا لما جاء فى قوله **تعالى "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" (التوبة – ١٠٥)** . كما ربطت الأجر بالإنتاج تمشيا مع المبدأ الاشتراكى المعروف "من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله" فهل هذا يتعارض مع قوله تبارك وتعالى **"لكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون" (الأحقاف – ١٩)** وكما يقول **"وما تجزون إلا ما كنتم تعملون" (الصافات – ٣٩)** وإذا كان من مبادئ الثورة "إقامة العدالة الاجتماعية" وذلك للقضاء على الاستغلال والاستبداد فى جميع صوره، وإتاحة الفرصة لكل مواطن فى نصيب عادل من الدخل القومى مع العمل على تحريره من كل قلق يبدد أمن المستقبل فى حياته وحياة أسرته . فقد كانت "التأمينات الاجتماعية" من أهم الوسائل لتحقيق هذه الأهداف جميعا ، فضلا عن الحفاظ على كرامة الفرد وتأكيد حقه فى الحياة الحرة ، وتحقيق كل عناصر الاستقرار والاطمئنان له ولأسرته . وأصبح نظام معاشات العمل يظل جميع العاملين فى حالات الشيخوخة والعجز والوفاة واصابات العمل كما صدرت قوانين التأمين الصحى وتأمين البطالة وغيرها .

كل ذلك كان تطبيقا لمبدأ التكافل الاجتماعى فى الإسلام . حيث يكون المجتمع مسئولا عن أبنائه غير القادرين على العمل لأسباب مختلفة ، وليس لما يفسره البعض من تصدق الأغنياء على الفقراء بما يتنافى مع قوله تبارك **وتعالى "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" (البقرة ١٤٣)** ومعنى "وسطا" هنا "عدلا"[(١)] ويفسر البعض "أمة وسطا" أى أمة ليس بها أغنياء أو فقراء.

لقد كان الأنبياء ينشدون مجتمعا لا طبقيا ، تسوده العدالة ويعمه الرخاء وإنا لنجد فى تعاليمهم الأصول الفكرية لاشتراكيتنا المعاصرة . ومن هذا الأساس العريض تنطلق رسالة الدين عبر العصور .. الرسالة التى حملها الأنبياء والمرسلون جميعا . والتى جاءوا بجوهرها والتى أمرنا ربنا أن نؤمن بها وبهم جميعا فى قوله **تعالى "قولوا آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" (البقرة – ٣٦).**

إن مبادئ الناصرية تمثل عمقا تاريخيا يربط بين حياتنا فى تتابعها ويبرز شأن الدين فى نضالنا الوطنى ، متفاعلا مع المواريث الحضارية عامة والعربية خاصة – دون انغلاق عليها . وإنما أثرتها بالتفاعل الدائم مع الحضارات العالمية دون أن تفقد شخصيتها .

وإذا كان اهتمام الناصرية بالقضايا العالمية . قضايا الاستعمار والتفرقة العنصرية والتخلف الاجتماعى والاقتصادى.. إذا كان لهذا الاهتمام جوانبه الإنسانية والحضارية الشاملة ، ففيها أيضا يلتقى جوهر الدين بحقائق الحياة. ويعمل كلاهما من أجل كرامة الإنسان حيث يكون .

---

(١) لسان العرب – الجزء السابع .

إن الناصرية تعتبر الدين عنصرا موضوعيا من عناصر البناء الاجتماعى . ووظيفة أبدية للروح الإنسانية ، كما أنه يملك تعبيرا أدرا كيا وميدانا من ميادين المعرفة . كما أنها تعطى أهمية لمغزى تطور التاريخ وحتميته . إلا أن هذا المغزى لا يذوب فى خضم التاريخ نفسه . بل يوجد من القيم والأنماط ما يعلو على مجريات التاريخ . وان الحكم على هذه المدريات يجب أن يكون على ضوء هذه القيم. والمقصود بذلك هو القيم الروحية والخلقية . وهذا ما يميز الناصرية عن غيرها من النظريات المادية التى تعطى أهمية فقط لتطور التاريخ وحتميته. فإذا كان هذا هو فهم الناصرية للدين وارتباطه بالحياة . وإذا كان من أهم أهدافها تحرير الإنسان من الظلم وإلغاء الاستغلال عنه . فهل يمكن أن تكون متعارضة مع تعاليم الله ورسالاته السماوية ؟

يقول الميثاق فى هذا الصدد : "إن الرسالات السماوية لا تتصادم فى جوهرها مع حقائق الحياة . ولكن الرجعية تخلق للدين تفسيرات تتعارض مع حكمته الإلهية السامية".

أما إذا كان بعض رجال الدين وبعض قوى اليمين تتهم الناصرية بأنها ضد الدين . فان ذلك يرجع إما إلى جهلهم بحقيقة رسالة الأديان ، التى هى ليست مجرد طقوس وتكاليف تؤدى ، بقدر ما هى قيم ومبادئ تتصل بضمير الإنسان وبقلبه ، ومدى علاقته بربه والمجتمع الذى نعيش فيه . وإما أنهم يتلقون وحيهم من بعض القوى القابعة فى قصور الرجعية ، والتى يزعجها ما تحمله الناصرية من مبادئ تقدميه وتحررية . إن عاجلا أو آجلا ستقوض هذه القصور على رؤوس أصحابها ليستطيع الشعب العربى أن يشق طريقه فى سبيل الحرية والعزة والكرامة .

إن أولئك وهؤلاء ينطبق عليهم قول الله تعالى "**لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون**" **(البقرة – ٤٠)**.

ما هي قوة الناصريين شعبيا ومدى قدرتهم على الحركة والتأثير فى الجماهير ؟

لقد سبق أن أوضحنا أن الناصرية حركة جماهيرية استطاعت من خلال مبادئها ومواقفها وممارساتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، أن تعبر عن مصالح أوسع للجماهير ما يقرب من ربع قرن . بل أنها كانت تعبيراً عن آمال وأهداف الجماهير خلال مراحل النضال المصرى عبر أجيال عديدة.

وقد كانت تجربة النضال الثورى فى بلادنا فريدة فى نوعها ، حيث كان هناك ترابط بين الكفاح المسلح والنضال السياسى ، بل اتخذ أحيانا شكل انتفاضات شعبية شاملة ، بينما فى بعض الأحيان تم الجمع فى وقت واحد بين كل تلك الأشكال النضالية . وقد انعكس هذا بدوره على جماهير شعبنا التى آمنت بالناصرية كطريق للنضال .

وبالرغم من أن قوى الثورة المضادة – منذ رحيل الزعيم الخالد جمال عبد الناصر – أخذت تبذل قصارى جهدها – مدعمة بقوى الرجعية والإمبريالية – لتشكيك الشعب المصرى والعربى فى مبادئ وإنجازات الثورة الناصرية ، مستخدمة فى ذلك كافة أساليب ووسائل الدعاية والتشهير والإرهاب ضد الجماهير ، ومحاولة تضخيم السلبيات التى لا ولم تخل منها أية حركة ثورية فى التاريخ . دون إشارة من قريب أو من بعيد إلى إنجازات ثورة يوليو الوطنية والقومية والدولية . هذه القوى التى تمثلت أساسا فى بعض الذين ثبتت عمالتهم بأحكام قضائية ، وآخرين ممن كانوا يؤلبون قوى الاستعمار ضد الثورة والشعب وهم مقيمون فى الخارج على نفقة أجهزة المخابرات المعادية . أو ممن أضيروا نتيجة تملك الشعب زمام أموره السياسية والاجتماعية بنفسه ، أو من بعض العناصر الانتهازية التى تساير كل ركب وتهلل لكل عهد . بالرغم من هذا كله ظل الناصريون فى الحقول والمصانع وفى المعاهد والجامعات ، وداخل حلقات المثقفين والشباب، والقوى الوطنية الشريفة فى مواقع العمل والإنتاج . متمسكون بمبادئهم رغم الضغوط المادية والنفسية العنيفة التى تعرضوا لها . بل أنهم ازدادوا صلابة وقوة واستطاعوا أن يضموا إلى صفوفهم كثيرين من المترددين، وأن يقنعوا البعض بمنطقهم ومبادئهم ، ولعل من أبرز مظاهر ذلك ، انتشار أندية الفكر السياسى الناصرى فى كثير من المواقع والجامعات بعد أن كانت قاصرة فى مبدأ الأمر على جامعة عين شمس فقط . بل أن ذلك امتد إلى بعض الأقطار العربية التى أخذت فيها القوى الناصرية تلعب دورا بارزا فى مجريات الأحداث فى هذه الأقطار . علاوة على قيام روابط للطلبة العرب المبعوثين إلى الخارج فى كثير من البلاد الأوربية.

أن النجاح الذى يتحقق فى هذا المجال هو انتصار بطريقة خلاقة تتلاءم والظروف الموضوعية لبلادنا ، وبيان واضح للحيوية التى لا تقهر للفكر الناصرى . والناصريون الحقيقيون لن يسمحوا لأنفسهم بأن يركنوا إلى الراحة قانعين بما تم ، فان قضيتنا الثورية لم تستكمل بعد ، وما زال أمامنا الكثير من الأشياء التى يجب عملها ، وعلينا أن نواصل شق طريقنا خلال العديد من الصعاب والعقبات .

أن قدرة الناصرية على الحركة والتأثير فى الجماهير أخذت تتنامى تلقائيا مستخدمة فى ذلك أساليب الإقناع وليست أساليب الضغط والإرهاب والترغيب فى بعض الأحيان . وعليهم أن يقدروا كل المصاعب حق التقدير وأن يكونوا مستعدين للتغلب عليها بصورة منتظمة وبإرادة لا تلين . أن القوى الرجعية لديها صعوبات كما أننا أيضا لدينا صعوبات . ولكن صعوبات القوى الرجعية لا يمكن حلها ، ذلك لأن هذه القوى مشرفة على الهلاك وليس لها مستقبل . أما صعوباتنا فيمكن تذليلها لأننا قوى ناشئة لها مستقبل مشرق .

أن قدرة الناصرية على ا لحركة والتأثير فى الجماهير تتأتى نتيجة التزامهم ببعض مبادئ العمل السياسى أهمها :

١- الارتباط بوحدة فكر ، والعمل على إيجاد رأى عام مستنير عن طريق تنمية المستوى الفكرى والاشتراكى للجماهير .

٢- القدرة على حسن تفسير الأحداث وإدراك الحقائق وتمييز المفاهيم المدسوسة واستبعادها

٣- تصفية آثار ورواسب الفكر الاستعمارى والاقطاعى والرأسمالى والرجعى

٤- إيجاد التفاعل الكامل وتبادل التأثير والتأثر التام مع الجماهير

٥- تعبئة قوى الشعب العاملة لتدعيم الثورة وحماية ما أنجزته من مكاسب فى الداخل والخارج والقضاء على أسباب الانحراف

٦- كشف القوى الرجعية المعادية للاشتراكية وأوكارها وأساليبها وشل نشاطها ووقف فاعليتها

٧- الاحتفاظ المستمر بمستوى حماسة الجماهير وتجاوبهم مع الاشتراكية والتزام العمل بمقتضاها

أن هذه المبادئ التى التزمت بها القوى الناصرية تحتم علينا أن نكون متواضعين وأن نتحصن ضد الغرور والاندفاع الطائش . وأن نخدم الشعب بكل أمانة وإخلاص . ولا ننفصل عن الجماهير لحظة واحدة ، ونتوخى مصلحة الشعب فى كل عمل نقوم به ، لا لمصلحة فرد أو فئة من الناس . أن المصاعب حقيقة واقعة يجب أن نعترف بها وأن نحللها ونكافحها ، وأن نعد أنفسنا للسير فى طرق شاقة ، وألا نطمع فى غنيمة باردة ، فلا يمكن أن نتصور أن الإمبريالية والصهيونية والرجعية سيركعون على الأرض بمحض إرادتهم . بذلك تظل الناصرية رافعة أعلامها لتحقق مبادئها فى ظل الحرية والاشتراكية والوحدة .

ما هي الاشتراكية شفى الفكر الناصري ؟

لقد بدأت خطوات التغير الاجتماعى والتطور لبناء الاشتراكية فى مصر منذ الشهور الأولى بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ففى يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢ صدر قانون الإصلاح الزراعى الأول الذى حدد الملكية الزراعية بمائتى فدان وصاحب ذلك قانون لتحديد العلاقة بين المالك والمستأجر . وإذا كان القانون فى حد ذاته لا يؤدى بالضرورة إلى بدء التحول الاشتراكى فى مصر . إلا أنه كان يعبر عن تغيير أساسى فى مصر من الناحية الاجتماعية طال انتظاره ، قاد فيما بعد إلى تحقيق خطوات أخرى فى طريق التطور الاشتراكى . وقد توالى الخطوات بعد ذلك فنقلت أجزاء متتالية من وسائل الإنتاج إلى ملكية الدولة خلال الفترة بين ١٩٥٦–١٩٦٠ ثم حدث التأميم لجزء هام من النشاط الاقتصادى عام ١٩٦١. كما حدث عدد من التغيرات الأساسية فى علاقات الملكية خاصة وعلاقات الإنتاج عموما قبل صدور الميثاق الوطنى فى مايو ١٩٦٢ الذى كان الأساس النظرى للفكر الناصرى . وقد تناول الزعيم الخالد جمال عبد الناصر هذا الفكر بالشرح والتوضيح فى العديد من خطبه وتصريحاته بعد ذلك .

وقد بدأت كلمة الاشتراكية تتردد على لسان عبد الناصر فى خطبه وتصريحاته بعد القضاء على العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ . وتضمن خطابه فى المؤتمر التعاونى عام ١٩٥٧ أهمية أحداث تغييرات أساسية فى المجتمع لضمان تحقيق العدالة الاجتماعية ومنع الاستغلال . وأمام اللجنة التحضيرية فى نوفمبر ١٩٦٠ يجيب على التساؤل أين ومتى تتوقف الثورة قائلا بأنه لا يمكن التوقف قبل أن ينتهى تذويب الفوارق بين الطبقات وقبل أن تنتهى كل أشكال الاستغلال .

وجاء الميثاق الوطني عام ١٩٦٢ وأعلن أن هدف الاشتراكية هو تحقيق الحرية الاجتماعية ، وهى لا تحقق إلا بتحقيق فرص متكافئة أمام كل مواطن فى نصيب عادل من الثروة الوطنية . وأن تحقيق ذلك لا يتم بمجرد إعادة توزيع الثروة القومية بين المواطنين بل يتطلب أساسا توسيع قاعدة هذه الثروة بحيث تستطيع الوفاء بالحقوق المشروعة لجماهير الشعب العاملة . ويرى الميثاق أن الاشتراكية لها دعامتان أساسيتان : الكفاية أى تحقيق الكفاية فى الإنتاج والعدل أى تحقيق عدالة توزيع الثروة القومية .

ويوضح عبد الناصر أهداف الاشتراكية فى خطبه وتصريحاته ففى حديث للهيئة البرلمانية للاتحاد الاشتراكى العربى فى ١٩ مايو ١٩٦٥ يقول :

"الاشتراكية هي منع استغلال الإنسان للإنسان ، والاشتراكية هى خلق الظروف والدوافع وتطوير المجتمع حتى يجد الإنسان كفرد والمجتمع كمجتمع كل الإمكانيات المادية و الفكرية والروحية " ويقول فى يوليو ١٩٦٥ "الاشتراكية هى تصفية الفوارق بين الطبقات . ويتكلم فى عيد أول مايو ١٩٦٦ عن استغلال الانسان

للانسان فيقول "أن الاستغلال هو أخذ عرق العمال .. العامل اللى بيشتغل وقيمة عمله جنيه بديله ربع جنيه ويأخذ هو – أى الرأسمالى – ¾ جنيه".

أن شروط تحقيق الاشتراكية كما جاءت فى الميثاق وتصريحات جمال عبد الناصر يمكن تلخيصها فى الآتى :

١- أهمية سيطرة الشعب على كل أدوات الإنتاج . وعلى توجيه فائض الإنتاج طبقا لخطة محددة . ويوضح الميثاق أن ذلك لا يتطلب التأميم الكامل لأدوات الإنتاج ووسائله . إلا أنه يتطلب قيام قطاع عام قادر يسيطر على قمم الاقتصاد فى المجتمع لتقود التقدم فى جميع المجالات . ويتحمل المسئولية الرئيسية فى خطة التنمية . وأن يعمل القطاع الخاص فى إطار الخطة الشاملة بدون استغلال . بحيث تكون رقابة الشعب شاملة لكلا القطاعين .

٢- أن يكون التخطيط المركزى الشامل المرتكز على القطاع العام طريقا للتنمية الاقتصادية ، باعتباره الطريق الوحيد الذى يضمن استخدام جميع الموارد ، الوطنية والمادية والطبيعية والبشرية بطريقة علمية وإنسانية لكى تحقق الخير لجموع الشعب . كما يقضى على الاتجاهات الطفيلية التى تحاول أن تعيد السيطرة الرأسمالية المستغلة وتعميق الفوارق الطبقية . ولكى تتحالف مع رأس المال الأجنبى بهدف تصفية استقلالنا الاقتصادى .

٣- أن التحول الاشتراكي يتوقف على الأساس الاقتصادى للمجتمع ، وبأساس اقتصادى قوى نستطيع أن نحقق التحول الاشتراكى. ومن أجل أن يكون لدينا أساس اقتصادى قوى فمن الضرورى أن يكون لدينا قاعدة صناعية قوية.

٤- أهمية أحداث تغيير فى العلاقات الاجتماعية والقيم السائدة ولا يتم ذلك إلا بواسطة قوى اشتراكية تمثل الشعب العامل وتتسلح بالوعى الاشتراكى . وتحل التناقضات التى تواجهها فى مرحلة التحول . كما يتطلب ثورة ثقافية شاملة وتغييراً جذريا فى مناهج التعليم بحيث يصبح هدفها هو تمكين الإنسان من إعادة تشكيل حياته من جديد . كما يجب إعادة صياغة القوانين لتخدم العلاقات الاجتماعية الجديدة . وإلا يكون هدف شعار سيادة القانون هو تثبيت الأوضاع والعلاقات الاجتماعية القديمة ، بل العمل على حماية المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأوسع الجماهير الشعبية.

٥- أن يسقط التحالف القائم بين الإقطاع والرأسمالية وأن يحل مكانه تحالف ديموقراطى لقوى الشعب العامل من الفلاحين والعمال والمثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية المنتجة ، ليكون هذا التحالف الجديد السلطة الممثلة للشعب والدافعة لإمكانيات الثورة والحارسة على قيم الديمقراطية السليمة .

لاشك أن تحقيق الأهداف السابقة يحتاج إلى فترة ليست بالقصيرة حيث أن التخلف الاقتصادى والاجتماعى الذى ورثناه لا يمكن القضاء عليه إلا على مراحل طويلة نسبيا . كما أن الطريق الذى نتبعه لتحقيق الاشتراكية

يختلف عن الطرق التى أتبعت فى مجتمعات أخرى . وهنا يتبادر سؤال لماذا كان اختيار الاشتراكية ولماذا اعتبرت الحل الوحيد لحل مشاكلنا ؟ وقد أجاب الميثاق على هذا التساؤل فى فصله السادس "حتمية الحل الاشتراكى" بقوله أن المشكلة الأساسية التى تواجهها مصر هى مشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى وضرورة تحقيق النمو والتقدم فقد كانت مصر مثلها مثل بلاد العالم الثالث جميعا موضع النهب والاستعمار لفترة طويلة . وكانت الثروة القومية والدخل القومى فى مصر تنمو بمعدلات تقل عن معدلات نمو السكان فيها . وكان من نتيجة الاستعمار أن مصر التى كانت تقف نفس الموقف الاقتصادى الذى تقفه اليابان فى أوائل القرن التاسع عشر قد تخلفت كثيراً عما استطاعت اليابان والعديد من الدول الأخرى تحقيقه ، وبالإضافة إلى هذا التخلف فقد كانت الثروة القومية والجزء الأكبر من الدخل القومى مركزا فى يد فئة قليلة لم تكن تتجاوز ½ ٪ من مجموع سكان مصر . وكانوا يتمتعوا بنحو ٥٠٪ من الدخل القومى . هذا علاوة على أن الاستعمار البريطاني والفرنسي والأوروبي بشكل عام كان يسيطر على المراكز الاقتصادية الاستراتيجية فى الاقتصاد المصرى .

وفى مثل هذه الظروف كان على مصر أن تختار طريقا لتحقيق النمو الاقتصادى والتقدم الاجتماعى . أى تسير فى طريق التطور الرأسمالى أو فى طريق التطور الاشتراكى . ويشير الميثاق إشارة واضحة إلى أن طريق التطور الرأسمالى هو طريق مسدود لا بالنسبة لمصر وحدها ولكن بالنسبة لدول العالم الثالث جميعا . لظروف موضوعية ذكرت بالميثاق .

ومن هنا فان الطريق الوحيد المفتوح لتحقيق التطور هو الحل الاشتراكى . يقول الميثاق : " أن الحل الاشتراكى لمشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى مصر وصولا ثوريا إلى التقدم لم يكن افتراضا قائما على الانتقاء الاختيارى . وإنما كان الحل الاشتراكى حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير، كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم فى النصف الثانى من القرن العشرين" .

من ذلك يتضح لنا أن الطريق الاشتراكى هو الطريق المفتوح للأسباب الآتية :

- يدعم جوهر الاشتراكية ويمنع السيطرة الاستبدادية ، وفى الوقت نفسه يدعم الإنتاج لأنه يطلق حرية المنتجين فى العمل طبقا لقوانين الاقتصاد الاشتراكى ، مما يؤدى إلى نمو الاقتصاد الاشتراكى بصورة مستمرة ويتطور فى خط تصاعدى حيث أن الملكية الاجتماعية تكون متوافقة مع الطبيعة الاجتماعية للإنتاج.
- ينقذ الاقتصاد الاشتراكى المخطط المجتمع من التبديد الضخم فى الموارد المادية وموارد قوة العمالة. هذا التبديد الذى تتميز به الرأسمالية ويسير جنبا إلى جنب مع أزماتها الاقتصادية .
- أن الاقتصاد الاشتراكى يسير طبقا لخطط مقررة وعلى أساس النسب التى يقررها المجتمع ليضمن بها أقصى حد من سد المتطلبات المادية والروحية والثقافية للشعب .

- أن الاقتصاد الاشتراكى المخطط يعتبر عاملا قويا فى التقدم العلمى والتكنولوجى حيث توجد مجالات كبيرة لتطويرهما . إذ يمكن تركيز القوة العاملة والموارد المادية والمالية لحل المشاكل العلمية والفنية ذات الأهمية على نطاق واسع .
- أن الاقتصاد الاشتراكى المخطط يؤدى إلى معدل عال للتنمية حيث يزداد حجم الإنتاج الصناعى بمعدلات لا يستطيع النظام الرأسمالى الوصول إليها . وهذا يؤدى إلى نمو سريع ومستمر فى الإنتاج والى ارتفاع مضطرد للمستويات المادية والحضارة للشعب .
- فى ظل الاشتراكية يمكن استخدام موارد القوة العاملة طبقا للخطة . ويضمن هذا الاستخدام التشغيل الكامل لجميع قوى الشعب العامل . فلا توجد بطالة ، وإنما على العكس من ذلك فهناك زيادة مستمرة وثابتة فى عدد المشتغلين فى الاقتصاد القومى . يضاف إلى هذا أن تدريب الفنيين يجرى وفق خطة موضوعة. وكذلك توزيعهم على فروع الاقتصاد المختلفة مما يؤدى إلى رفع المستويات المادية والثقافية للشعب العامل .
- المجتمع الاشتراكى هو مجتمع الحوافز المعنوية . فهذا المجتمع هو الذى يوجد التطابق الكامل بين المصلحة الشخصية لكل عامل فى الإنتاج وبين مصلحة المجتمع فى زيادة الإنتاج . بينما المجتمع الرأسمالي المبنى على الربح الرأسمالي والأجر المحدد للعامل يقصر الشعور بهذه المصلحة فى زيادة الإنتاج على طبقة الرأسماليين ويستبعد منه الطبقة العاملة التى ترى الجزء الأكبر من ناتج عملها يعود على غيرها.
- المجتمع الاشتراكى هو مجتمع الحوافز المادية لأنه يربط ربطا وثيقا بين كل زيادة فى دخل الفرد وبين المساهمة التى يساهم بها فى زيادة الإنتاج .
- النظام الاشتراكي هو الذي يطلق قوى الانتاج الكامنة فى المجتمع. الذى قضى عليها إبان الحكم الاستعمارى والرجعى . أن الشعوب هى العنصر الأساسى فى قوى الإنتاج ، فالعمل الانسانى الخلاق هو العنصر الايجابى فى عملية الإنتاج وهو الذى يخلق أدوات الإنتاج . أنها قوة إنتاجية كامنة تتحرك عندما تملك مصيرها بين يديها .
- الاشتراكية هى طريق القضاء على الاستغلال والطريق المؤدى إلى الحرية والديموقراطية . فهى ليست الطريق الوحيد للقضاء جذريا على مشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى ولكنها أيضا طريق الحرية والديموقراطية . لأن الحرية الحقيقية أساسها التحرر من الحاجة والتخلص من القلق والاطمئنان إلى المستقبل والثقة به . وهى طريق الديموقراطية لأن الديموقراطية السياسية هى طريق المحافظة على الاستقلال الوطنى وتدعيمه .
- الاشتراكية هى طريق المحافظة على الاستقلال الوطنى وتدعيمه فى مواجهة القوى الاستعمارية العدوانية التى تعمل دائما للتآمر وتحسس مواطن الضعف لتتسلل من جديد إلى مواقعها القديمة . ولمواجهة حركة الاحتكارات الرأسمالية العالمية والتى تهدف إلى ربط اقتصاديات الدول النامية أو الدول حديثة الاستقلال باقتصاديات الدول الرأسمالية الكبرى وجعلها توابع لها . أن الاستقلال الوطنى لا يمكن المحافظة عليه

وتدعيمه إلا على أساس التحرر الاقتصادى وإقامة القاعدة الاقتصادية الوطيدة التى تتكفل بحمايته وتقيم مجتمعا بعيدا عن السيطرة والتبعية الاستعمارية.

ما هي وجهة نظر الناصرية فى حتمية الصراع الطبقى ؟

لقد جعل الصراع الطبقى الذى مر على المجتمعات البشرية كثير من المفكرين والفلاسفة يحللون هذه الظاهرة ويعتبرون أن وجود الطبقات يؤدى حتما إلى قيام الصراع فيما بينها فى سبيل السيطرة والقوة . غير أن بعضا منهم حلل هذه الظاهرة بعوامل غير اقتصادية – فمنهم من أرجعها إلى عوامل دينية أو نفسية أو إلى مسئوليات المعيشة المتباينة داخل المجتمع الواحد أو بالنسبة لظروف اجتماعية معينة .

إلا أنه مما لا شك فيه أن العامل الحاسم فى ذلك هو العامل الاقتصادى ، أى العلاقة القائمة بين الطبقات ووسائل الإنتاج فى المجتمع .

ونحن إذا نظرنا إلى المجتمع الاسلامى فى بدء ظهوره نجد أن هذه الظاهرة وهذا الصراع كان قائما بين من حملوا رسالة الإسلام على حقيقتها كثورة اجتماعية تهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية وعدالة التوزيع لناتج وسائل الإنتاج التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، وهى الأرض ، وبين من انضموا إلى الإسلام لا حبا وإيمانا به بل لمحاولة احتوائه وتوجيهه إلى نظام اقتصادى واجتماعى معين يحقق لهم السيطرة الإقطاعية ثم السيطرة السياسية بعد ذلك .

وكانت وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام إيذانا ببدء هذا الصراع وقيام الثورة المضادة للإسلام والتى كانت أولى بوادرها ارتداد البعض عن الإسلام واتخاذهم مواقف معينة ضد الصحابة وأهل البيت . ألا أن وقوف أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) وتصديه لهذه الثورة المضادة وقضائه عليها فى مهدها بعد سلسلة من المعارك المعروفة (بحرب الردة) أمكنه أن يحفظ الإسلام ويصونه ويعيد الوحدة إلى المسلمين . إلا أن أعداء الإسلام وإن لم يستطيعوا أن يطعنوا الإسلام فى جوهره وعقيدته فقد اخذوا يعملون لطعنه كثورة اجتماعية تهدف إلى تحقيق العدالة والحرية والمساواة بين الناس. فاتخذوا سبيل العنف فى ذلك وقاموا بسلسلة من الاغتيالات أودت بحياة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب (رضى الله عنهم) وبموت الأخير انحرف المسلمون عن ثورتهم الاجتماعية فقامت الدولة الأموية نسبة إلى معاوية بن أبى سفيان والذى كان أبوه أبى سفيان من أعدى أعداء الإسلام والرسول (عليه الصلاة والسلام).

وبقيام الدولة الأموية عاد الإقطاع مرة أخرى يبسط نفوذه على المجتمع الاسلامى وقامت الخلافة بالوراثة التى كانت بعيدة عن روح الإسلام وتعاليمه.

لقد قام الإسلام على مبادئ اجتماعية واقتصادية معينة فهو يضع حدا لتملك رأس المال ويمنع سيطرته على الحكم كما جاء فى سورة الشورى "**ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكنه ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير**" .

وكما جاء فى سورة الإسراء "**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا**".

كما حمل القرآن على اكتناز الأموال والمكتنزين لها مما يؤدى إلى حبسها عن النشاط الاقتصادى كما جاء فى سورة التوبة "**الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**" . وما جاء فى سورة البقرة "**وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** " .... هذا ولم يعترف الإسلام بوجود الطبقات الاجتماعية ولكنه نص على تفاوت الدرجات بين الناس تبعا لما يؤدونه من أعمال كما جاء فى سورة الأحقاف "**ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون**" كما جعل الجزاء مقترنا بالعمل وهذا ما يبدو فى قوله تعالى فى سورة الصافات "**وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** " ..

إن الإسلام لا يمكن قطعا أن يبيح نظام الطبقات لأن هذا النظام يتنافى مع ما أعلنه الإسلام وخاطب به الناس والشعوب جميعا من مبادئ المساواة والحرية والمشاركة فى التمتع بالحياة ومنع التمييز والتفرقة والاستغلال بين الناس .

وقد اعترف الإسلام ضمنا بوجود الصراع الطبقى على أساس اقتصادى وعلى أساس علاقة الإنسان بوسائل الإنتاج وما يؤديه هذا الصراع من تدمير للمجتمعات الإنسانية كما سبق أن بينا فى آيات القرآن البينات.

ومن هذا يتضح لنا أن نظرية الصراع الطبقى لم تكن جديدة علينا أو دخيلة على فكرنا بل هى أصيلة فى هذا الفكر ونابعة منه ، ولعل فى استعادة كثير من الأحاديث النبوية الشريفة وما قاله السلف الصالح من علماء المسلمين فى هذا الشأن ما يوضح لنا الكثير مما قيل فى هذا الموضوع .

وعلى هذا فليست هى "إرادة الله" أو طبيعة الإنسان التى تجعل من البعض طبقات مُستغلة تعانى البؤس والفقر والحرمان وآخرين طبقات مستغلة تتمتع بثمرات الحياة على حساب الآخرين كما يحاول بعض المفكرين والكتاب إبراز ذلك .

وقد حاول البعض أن يجعل من الفكرة القومية الأساس الذى يقوم عليه الاستقرار الاجتماعى فى المجتمعات البشرية دون وضع أى اعتبار لمسألة الصراع الطبقى داخل هذه المجتمعات ، واعطائها أهمية ثانوية بالنسبة للمسألة الأولى . إن هذه النظرة خاطئة من أساسها لأنها تتجاهل الواقع الموضوعى الذى تعيشه هذه المجتمعات كما أنها تتجاهل عاملا هاما من عوامل تطور المجتمعات الإنسانية وهو العامل الاقتصادى أو المادى ، علاوة على تجاهل عامل الفكر الانسانى . وخطأ هذه النظرة يرجع أولا إلى أن الفكرة القومية – كما هى الحال بالنسبة لمسألة العلاقات الطبقية لم تكن نتيجة ظروف داخلية بل نتيجة تطورات تاريخية بعيدة فى المجتمعات البشرية.

فظهور المجتمعات الإنسانية يرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة النظام الاجتماعى والتغييرات التى تحدث فيه. فالمجتمعات البدائية الأولى كانت تقوم على أساس العائلة أو القبيلة والتى كان يرتبط أفرادها فيما بينهم بصلة عنصرية أو بصلة الدم. وبانهيار هذا النظام انهارت أيضا النظم القبلية وضعفت بالتالى رابطة الدم التى كانت تشكل مثل هذه المجتمعات.

وقد أدى اندماج هذه المجتمعات البدائية فى بعضها البعض إلى قيام الشعوب القومية وقد قامت القوميات على أسس وأركان تكلم عنها كثير من المفكرين مثل (اللغة – الدين – البيئة الجغرافية – الثقافة – المصالح المشتركة – الآمال المشتركة .. الخ) والتى هى تنبع فى الواقع من أساس تاريخى واجتماعى . وبالرغم من ذلك فقد ظلت وحدة المجتمعات القومية غير مستقرة . ففى المجتمع العبودى والمجتمع الاقطاعى استمر الصراع قائما لافتقار هذه المجتمعات إلى نوع من وحدة الحياة الاقتصادية اللازمة لضمان الاستقرار فيها . ولم تتبلور هذه المجتمعات إلى شعوب إلا فى ظل النظام الرأسمالى الذى استطاع أن يقضى على النظام الإقطاعى ويقيم فيها سوقا قومية واحدة . ولتفادى الصراع الطبقى فى المجتمعات البورجوازية الجديدة ابتكر مفكرو هذا النظام فى وسيلة جديدة للمحافظة على وحدته فأضافوا ركنا جديدا من أركان القومية وهو الجنس (العرق) وذلك لإلهاب مشاعر الجماهير ومحاولة استخدامها فى المغامرات والحروب الاستعمارية التى صاحبت قيام هذا النظام فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وفى القرن العشرين .. ففى القرن الثامن عشر كانت القومية الفرنسية التى انبثقت عن الثورة البورجوازية الفرنسية تلعب الدور الأكبر فى هذه الحروب .

وفى القرن التاسع عشر لعبت القومية الإنجليزية هذا الدور تحت شعار تحمل (الرجل الأبيض) مسئولية بناء الحضارة الإنسانية . وقد حاولت القومية الألمانية فى القرن العشرين خصوصا فى الحرب العالمية الثانية القيام بهذا الدور باسم سيطرة الجنس الجرمانى على بقية الأجناس كما وضح فلاسفة ومفكروا هذه النظرية أمثال (نيتشة) و (روزنبرج) من فلسفات عن مجتمع السادة والعبيد والإنسان الأعلى وغير ذلك من ترهات.

إن مثل هذه النظريات التى قامت على أساس أن بعض الأجناس أو الشعوب تتميز عن غيرها وأن الشعوب الملونة فى حاجة دائمة إلى الجنس الأبيض لكى يقودها ويوجهها فى الحياة غير صحيحة من الناحية العلمية ومن الناحية التاريخية التى أثبتت أن كل الشعوب فى العالم قادرة على إقامة الحضارات وخلق القيم الثقافية والإنسانية . وان ما تقدمه هذه الشعوب إلى الحضارة الإنسانية من ثقافة وقيم لا يرجع إلى لون البشرة أو شكل الجمجمة بل يرجع إلى تطور هذه الشعوب تاريخيا .

من كل هذا يتضح لنا أن المجتمع القومى – كما يفهمه فلاسفة البورجوازية – لا يمكنه بأى حال من الأحوال أن يقضى على الصراع الطبقى فى داخل الشعب الواحد – بل بالعكس انه يفتت هذا الشعب إلى معسكرات متقاتلة يتحين كل منها الفرصة للانقضاض على الآخر ما لم يكن هذا الصراع أو العداء موضع اعتبار وفهم عند قيام الحركة القومية.

ومن ناحية أخرى يوجد تضامن بين الطبقات المستغلة تتعدى حدود الوطن الواحد. فالاستعمار العالمي الذي يشكل تضامن بين بعض القوى الرأسمالية الكبيرة – رغما عن اختلاف قومياتها – يسعى دائما إلى استغلال الشعوب وسلب ثرواتها فى أحسن الأحوال فانه يفرض عليها التخلف متعاونا فى ذلك مع الطبقات الرأسمالية والإقطاعية فى هذه الشعوب .

لذلك كانت الحركة القومية العربية ذات المحتوى الاشتراكى واعية لهذه المخاطر فكانت أهم مبادئها التى انبثقت عن ثورة ٢٣ يوليو ضرورة القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة والقضاء على الإقطاع والقضاء على سيطرة رأس المال على الحكم وإقامة عدالة اجتماعية وإقامة حياة ديموقراطية سليمة . وقد استطاعت الحركة القومية العربية تحت الظروف القاسية التى تعيشها الأمة العربية أن تحقق كثيرا من الانتصارات رغما عما يتساءل به البعض عما قدمته للثورات العربية.

ويحاول البعض أن يُسخر الحركة القومية العربية لخدمة الاحتكارات البترولية العالمية بإقامة إمبراطورية من الدول المنتجة للبترول. كما يحاول البعض الآخر أن يستخدمها مطية الاستعمار الجديد بعد أن فشل الاستعمار القديم فى المحافظة على قواعده وامتيازاته وعملائه.

إن الحركة القومية العربية بمفهومها التقدمى ضمانة لحق الشعوب فى تقرير مصيرها وعامل على استقرار السلام على أساس من العدالة والحرية والمساواة ، ولم تعمل على استعباد الشعوب الأخرى واستغلالها أو تتخذ العامل العنصرى أو عامل الجنس ركنا من أركان مقوماتها .

وقد قال جمال عبد الناصر فى كتاب فلسفة الثورة "وإذن فنحن أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول ولا حين نصرخ ولا حين نستغيث ، إنما أقوياء حين نهدأ ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة ...."

وانقسام المجتمع إلى طبقات موجودة منذ الأزل . فمن المعروف أن تقسيم المجتمع إلى طبقات لم يكن موجودا فى المجتمعات البدائية كما أنه غير موجود فى المجتمعات الاشتراكية ، فأساس قيام الطبقات يرجع إلى وجود الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج التى تؤدى بالتالى إلى استغلال الفرد للفرد أو استغلال مجموعة من الأفراد لمجموعة أخرى لصالحها الخاص . وقد كان لا يمكن تفادى تقسيم المجتمع إلى طبقات فى مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمعات البشرية – بل كان ذلك ضروريا لازما – حيث كانت القوى المنتجة ضعيفة وتعتمد على وسائل إنتاج يدوية ولم تكن تستطيع تحقيق فائض يذكر من هذا الإنتاج ، وحيث كان جزء من المجتمع يقوم بإدارة هذه القوى المنتجة أو يعمل بالتجارة أو الشئون العامة الأخرى ، وفى مرحلة أخرى اهتم هذا الجزء بتطوير العلوم والفنون والقوانين .. الخ . ولكن منذ أن بدأت الثورة الصناعية تشق طريقها وأصبح الإنتاج يعتمد على الآلة وعلى أعداد كبيرة من العمال واضطرار العمال الحرفيين إلى ترك أعمالهم

والانضمام إلى جيوش العمال العاملة فى المصانع ، ووُجه المجتمع بمشكلة إيجاد التوازن بين طبيعة الإنتاج الجماعية الجديدة والملكية الفردية لرأس المال . وازداد التناقض داخل المجتمع حيث كان هدف الرأسماليون الحصول على أكثر فائض أو ربح من إنتاج مصانعهم على حساب الآلاف المؤلفة من العمال التى تعمل بالمصنع. ومن هنا كان من الضرورى لإزالة هذا التناقض أن تصبح ملكية رأس المال جماعية لتتوازن مع طبيعة الإنتاج الجماعية .. وبذلك تختفى الطبقات المستغلة وتذوب الفوارق بين الطبقات وتزول العراقيل التى تعوق تطور المجتمع .

وتنقسم المجتمعات غير الاشتراكية عادة إلى طبقتين أساسيتين وهما فى المجتمع العبودى طبقة السادة وطبقة العبيد وفى المجتمع الاقطاعى طبقة الإقطاعيين وطبقة الفلاحين وفى المجتمع البورجوازى طبقة الرأسماليين وطبقة العمال. أى أن الوضع الطبقى فى هذه المجتمعات عبارة عن طبقة تمتلك وسائل الإنتاج الرئيسية وتمارس فى الوقت نفسه السلطة السياسية بينما الطبقة الأخرى تتكون من الجماهير المستغلة . والعلاقة بين هاتين مثلا تظل دائما عدائية وقائمة على الصراع فيما بينهما . ففى المجتمع البورجوازى مثلا نجد أن طبقة الرأسماليين تسعى إلى إجبار طبقة العمال على إنتاج أكبر كمية من الإنتاج بأقل أجور ممكنة بينما أن طبقة العمال تسعى دائما عكس هذا الاتجاه ومن هنا ينشأ الصدام المستمر بينهما الذى يهز كيان المجتمع ويمنع الاستقرار فيه .

لذلك كان الصراع والتناقض الطبقى أمر حتمى فى المجتمعات البورجوازية لابد من القضاء عليه ليستطيع المجتمع أن يسير فى طريق البناء الاشتراكى . إن اشتراكيتنا تؤمن بذلك – وقد استطاعت أن تحل هذا التناقض بالوسائل السلمية وليس بالصراع الدموى . وكما جاء فى الميثاق "الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو انكاره ، وإنما ينبغى أن يكون حله سليما فى إطار الوحدة الوطنية وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات".

إن زوال الطبقات المستغلة لا يمنع إطلاقا من وجود عناصر جديدة لها تطلعات طبقية تسعى دائما لتحل محل الطبقات القديمة بحكم اتصالها السابق بهذه الطبقات وتأثرها فكريا بها . وهى عبارة عن قشور طبقية تريد أن تتراكم لتشكل طبقة جديدة لتعاود الاستقلال مرة أخرى.

وهى إذا كانت تحالفت فى الماضى مع طبقات العمال والفلاحين فإنها يجب أن تتمسك بتحالفها هذا وإلا انفصلت عن قاعدتها الشعبية الوطيدة.

وهى فى محاولتها التخلص من هذا التحالف تنادى بأن ثورتنا ترفض مبدأ الصراع الطبقى وتحل التعاون بين الطبقات محل هذا الصراع . وقد جاء فى الميثاق "إن الرجعية ما زالت تملك من المؤثرات المادية والفكرية ما قد يغريها بالتصدى للتيار الثورى الجارف خصوصا فى اعتمادها على الفول الرجعية فى العالم العربى المسنودة من جانب قوى الاستعمار .

إن تطورنا الثورى هو الذى يؤكد ضرورة تمسكنا بالمبادئ والقيم التى نادى بها الميثاق . إن الميثاق يقول "إن التقدم هو غاية الثورة. والتخلف المادى والاجتماعى هو المفجر الحقيقى لإرادة التغيير والانتقال بكل قوة وتصميم مما كان قائما بالفعل إلى ما ينبغى أن يقوم بالأمل".

ما هو دور الناصرية فى العالم العربى .. وكيف تلعب دورا نشيطا ومتناميا فى حركة القومية العربية التى فجرها جمال عبد الناصر ؟

إن الدافع القومى للأمة العربية ، أمر لا يختلف عليه اثنان ، ولست هنا فى مجال بيان عوامل هذه القومية ، فقد أصبحت هذه العوامل راسخة فى ضمير الشعب العربى ووجدانه . ولم تصبح القضية فى عصرنا الحاضر ، هى إثارة هذه العوامل ، بقدر ما هى اتخاذها منطلقا لبناء حضارى جديد هدفه المستقبل ، نافضا عن نفسه غبار التخلف . متحررا من كافة عوامل القهر والاستغلال بحركة ثورية دائبة ، ترسى دعائم فلسفة جديدة بفكر جديد يحطم كافة العقبات ، وما ران على الفكر العربى من جمود . تشده الرجعية دائما إلى الوراء تارة باسم التراث وتارة باسم الدين – والدين من ذلك براء – وتارة أخرى بمهاجمة الحضارات الحديثة والفخر المبالغ فيه بالماضى ، وذلك هروبا من منطلقات وتبعات بناء مجتمع وحضارة حديثة تحتاج إلى جهد وفكر وعلم ، أصبح المجتمع العربى ببنائه الاجتماعى المتخلف ، غير قادر على مواجهتها والتصدى لها . وكما يقوم "توفيق الحكيم" الذى استوعب التجربة أخيراً "أن كثرة الكلام عما يسمى بالانحلال الحضارى الأوربى هو محاولة لإراحة أنفسنا من سباق النشاط الحضارى الحقيقى لأوربا والعالم" .

وإذا كان الواقع القومى العربى هو حقيقة تاريخية منذ أقدم العصور ، تباين ظهوره فى مراحل التاريخ المختلفة نتيجة عوامل داخلية وخارجية . فأن ذلك لا يغير من حقيقة انتماء الشعب العربى إلى هذه القومية ، رغم كثير من المحاولات لطمس معالمها . بإبراز اتجاهات مختلفة كان مصيرها جميعا الفشل .

ومن الواضح أن القومية العربية كغيرها من القوميات مذهب عقائدى ، ومن الواجب إيضاحه خارج نطاق الأفكار التى تؤلفه . وليست اختبارات اللغة والوعى التاريخى وغيرهما من الخصائص القومية إلا تطبيقات للفكرة القومية . وكلها يعتمد على التقبل المسبق لوجود الأمة كعامل فى المجتمع السياسى . ومهما قيل عن القوميات الحديثة فإن هناك نتيجة مذهبية موضوعية واحدة للقومية يكاد يكون الإجماع كاملا عليها ، وهى أنها – أى القومية – تضع الحدود للمجتمع السياسى.

وقد واجه تحديد الشخصية الذاتية للقومية العربية عدة مصاعب ، أهمها بعض المفاهيم الدينية الخاطئة التى كانت ترى أن البحث فى الشخصية والذاتية النفسية موضوع محظور فى الإسلام من الناحية الثقافية وظهرت مدارس فكرية كثيرة لكلا الاتجاهين مما ممكن الاستعمار من استغلال هذه الفرقة لتثبيت أقدامه فى الوطن العربى وفى أجزاء كبيرة من العالم الاسلامى .

والشئ الواضح هو أن أوربا كانت فى نهاية القرن التاسع عشر تضم فى غالبها دولا قومية واعية لذاتها ، بينما لم يكن الشرق العربى على هذا النحو . وكانت أوربا الغربية قد غدت بلادا صناعية بينما لم يكن الشرق العربى قد وصل هذه الدرجة من التطور ، وبينما كان الغربيون يفكرون على صعيد نظام طبقى مؤلف من ثلاث طبقات

اجتماعية كان العرب يفكرون فى غذائهم أولا ، وفى تصنيف مهنى معقد ثانيا . وكانت القوميات التى يتحدث عنها الأوربيون قد ظهرت كاملة ملموسة على الصعيد السياسى . بينما ظلت القومية فى الشرق لفظة مطلقة لا تمت إلى الواقع ، وظلت فكرة الأمة العربية مفتقدة فى ذلك الحين .

وقد اتضح للكثيرين فيما بعد أن فكرة الجماهير ترتبط ارتباطا تاما بمشكلات الشخصية القومية ، وذلك لأن الشخصية مشكلة فردية فى أساسها ، ولا يتوافر وجود الجماهير التى تشكل المحتوى السياسى لأى مجتمع – إلا بعد أن تغدو المشكلة القومية مشكلة واسعة. وذلك لمواجهة التحديات المفروضة من الخارج.

ولم تكن القومية العربية عند المسلمين الرد الفورى على الضغوط الغربية. فعلى النقيض من ذلك جرت المحاولة لبعث إسلامى سياسى ثم تلتها محاولة أخرى لإصلاح النظرية القانونية والفلسفة فى الإسلام . لتتقبلا متطلبات المجتمع الحديث ونظرته الاقتصادية ومؤسساته الفكرية . وارتبط السيد جمال الدين الأفغانى بالمحاولة الأولى وهى حركة الجامعة الإسلامية ، بينما ارتبط الشيخ محمد عبده بالمرحلتين اللاحقتين . وقد تولى الشيخ محمد رشيد رضا تفسير آراء الرجلين ، ولاسيما آراء الأفغانى ، وان شاب تفسيراته بعض الخطأ لتأثره بالمذهب الوهابى الذى ظهر فى الجزيرة العربية . وكان هدف الحركات الثلاث تجديد الحيوية عند المسلمين وخلق الإحساس لديهم بالكرامة والعصرية والتضامن والحفاظ على القيم الدينية . ولاريب فى أن هؤلاء القادة الثلاثة من قادة العصرية الإسلامية ، رغبوا فى أن يؤدى الإسلام فى وجه القومية العربية دور الفكرة القومية .

وقد مُنيت جهودهم بالفشل نتيجة أسباب عدة ، منها زوال الخلافة العثمانية وأطماع بعض الحكام العرب ، واحتلال بريطانيا لمصر . والانشقاق الذى حدث فى وجهة النظر بين الصفوة السلفية التى ضمت علماء الدين والتى جعلت اعتمادها الأساسى على الدين ، وبين العصريين من المثقفين ثقافة غربية. ولم تحقق فكرة الجامعة الإسلامية أهدافها ولكن أنصارها نجحوا فى إيجاد تفسير جديد للفكرة الإسلامية إلى الحد الذى بات فيه دعاة القومية من المسلمين والمسيحيين على السواء ، يعتبرون الشخصية الإسلامية جزءا لا يتجزء من القومية العربية . وقد استخدمت تعابير الإرادة والعقل والتاريخ والطبيعة الفلسفية لسد الثغرة بين الفلسفة الإسلامية والفكرة القومية . ولعل من مظاهر ضعف الفكرة القومية فى ذلك الوقت ، نفس المظاهر التى نشأت فى سائر القوميات الأخرى . والتى حدثت بتأثير الازدواجية الكامنة فى الشخصية والمجتمع وبتأثير الأحاسيس الذاتية والنسق المتعارف عليه فى المجتمع الإنسانى .

لاشك أن مصر وشعب مصر يحتلان مكانا بارزا فى نطاق الواقع القومى العربى، وفى هذه المنطقة من العالم ، لعدة عوامل مختلفة ومعروفة يعيها الشعب العربى من المحيط إلى الخليج ، ولم تكن هذه المكانة وليدة العصور الحديثة ، بل هى قديمة قدم التاريخ نفسه .

فيقول "ساميفيل" فى كتابه "كنوز مصر" : "لقد توصل الإنسان شيئا فشيئا بفضل احتكاكه بالعالم الخارجى ، وبعد كثير من التحول والتغيرات الجوهرية إلى تعريف نفسه بنفسه والى الشعور بإنسانيته . وما من شعب صمد بشجاعة كالشعب المصرى فى وجه غائلات الزمن وسلطان المادة. إن تاريخ الشعب المصرى ليس فى مجموعه سوى محاولة للانتصار على الزمن وتخطى المادة . وقد لعب فى مكانه دورا أساسيا فى تطور الجنس البشرى ، ولو لم يحقق ما حققه لما وصلنا إلى ما نحن عليه" . ويواصل "ساميفيل" كلامه : "ولكن من هذا الوجه الأجدع للإله الشاب المختار بين الكثيرين غيره ، ومن هذه العيون المنطفئه ، وهذه الشفاه المطبقة الصامتة التى لن تنفتح أبدا ، ينبعث بقوة شمسية ، السهم الذهبى المثلث لرسالة تخطت حدود الزمان والمكان والعقل لتصل أخيرا إلينا. إنها رسالة الجمال والحكمة والصمت" .

فالشعب المصري بأصالته وصلابته كان دائما وسيظل حجر الزاوية فى بناء مستقبل هذه المنطقة . وقد مر كما مر غيره من الشعوب العربية – بفترة البلبلة الفكرية والازدواجية بين الفكر الإسلامى والفكر القومى العربى ، مما حد من قدرات انطلاقه فى مرحلة استغلها الاستعمار لتكريس وجوده وتدعيم سلطانه فى المنطقة . وكانت الدول الأوربية الاستعمارية قد وقعت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ بهدف عزل مصر وتقييد حركتها داخل حدودها ، كيلا يقوم فى المنطقة من يرث الرجل العثمانى المريض ، ويترك ذلك لأطماع الدول الاستعمارية ، ولم يكن محمد على فى سعيه لإنشاء إمبراطورية تضم بلاد الشام والجزيرة العربية والسودان إيمان بالقضية العربية ولكنه كحاكم إقطاعى عاش فى ظروف ارتباط المجتمعات الإقطاعية الشرقية بالسوق الرأسمالى الأوربى الأخذ فى الانتشار استهدف تحقيق أهداف الدولة الإقطاعية القديمة فى التوسع الاقليمى بوسائل جديدة.

إلا أنه من الثابت أن أهداف معاهدة ١٨٤٠ هى فرض التجزئة فى هذه القضية من ناحية الحكم ومن ناحية الحركات الشعبية . وقد تلا ذلك احتلال مصر بواسطة بريطانيا سنة ١٨٨٢ وعقد إبان الحرب العالمية الأولى اتفاق سايسكس – بيكو الذى يقسم أرض سوريا والعراق بين بريطانيا وفرنسا ، كما صدر وعد بلفور بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، بذلك فُتت النضال العربى وتبعثرت جهود القوى القومية ، وأصبحت المشكلة الوطنية تحتل المقام الأول فى كفاح كل شعب عربى على حدة .

وقد مر الفكر المصرى فى غضون القرن الأخير بأعظم درجة من التحول وأن كان الوضع فى البلاد العربية الأخرى ، لم يختلف كثيرا عن وضع مصر ، وأن كان أقل غموضا. ففى مصر التابعة اسميا للسلطان – الخليفة العثمانى أخذ الخدويون يتطلعون إلى مزيد من الاستقلال والى رفع مرتبتهم ، هادفين إلى الوصول إلى مرتبة الملكية. وقد تحولت هذه المطامع التى كانت سببا فى الكثير من إجراءات التعصير التى وقعت فى القرن التاسع عشر ، إبان الاحتلال البريطانى ، إلى رغبة فى تحقيق الاستقلال عن بريطانيا بمساعدة السلطان العثمانى . كما كان يتطلع الملك فؤاد فى مستهل القرن العشرين إلى الوصول إلى مرتبة الخلافة بعد إلغائها فى تركيا سنة ١٩٢٤ . إلا أن دعاة القومية والحركة الوطنية فى مصر كانوا يتوقون إلى الخلاص من النفوذ الأجنبى وإلى

تحديد سلطات الملك وصلاحياته . وأدت تجزئة البلاد العربية فى الهلال الخصيب واقتسامها بين الانتدابين البريطاني والفرنسي ، إلى تثبيط العزائم فى التفكير بأى تعاون مع البلاد العربية فى فترة ما بين الحربين .

وكان المثقفون والكتاب المصريون يبحثون عن شعار مناسب لتجسيد القومية المصرية . وراحوا يتشبثون فى مرحلة من المراحل ببعث الفكرة الفرعونية القديمة ، وهى فكرة لا تلقى أى صدى الآن وآمنوا بالفكرة التى دعا إليها الدكتور طه حسين ذات يوم والتى باتت منسوخة الآن ، وهى أن مصر تؤلف جزءا لا يتجزأ من حضارة متوسطية (البحر المتوسط) واسعة . وكان هناك مع ذلك فى الثلاثينات اتجاه اكثر قوة من الاتجاهين الآنفى الذكر إلى الشعارات الإسلامية عن طريق الكتب التى تناولت سير حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه . ولم يعدل عن هذه الشعارات فيما بعد ، وان دمجت مع الشعارات الداعية للوحدة العربية .. ومع ذلك فقد كان ثمة إحساس معين بالقلق من هذه الشعارات ، إذ بالرغم من قيادة مصر الفكرية لعرب المشرق والمغرب على حد سواء ، إلا انه يبدو أنه كان هناك إفراط فى استخدام هذه الشعارات دون الانفعال بها.

وقد أثرت هذه التيارات المختلفة على رجال السياسة المصريين ، فقد كانت الرأسمالية الوطنية التى تقود الكفاح فى مصر محدودة الطموح ، ومحدودة الإيمان فى قوة نضال الشعوب فى الداخل والخارج. وكان تكتل الشعوب العربية فى نظر سعد زغلول زعيم ثورة سنة ١٩١٩ مجرد جمع أصفار . وكان الإنجليز ضد أى تقارب مصرى من الشعب الفلسطينى والعربى .. كما ارتبطت مصالح كبار ملاك الأراضى المصريين بفكرة المصرية المنعزلة عن العرب خارج الدولة . وقد وقفت حكومة محمد محمود سنة ١٩٢٩ ضد ثورة الشعب الفلسطينى وكتبت جريدتهم "السياسة" تهدد الوطنيين الفلسطينيين بالطرد لإثارتهم الرأى العام خوفا من غضب بريطانيا ومن أى عامل يثير الشعب . كما صادر إسماعيل صدقى سنة ١٩٣٠ كثيراً من الصحف الوطنية ، وأقام حكمه على البطش بالحركة الوطنية وعلى الإرهاب . وأغلق جريدة "الشورى" الفلسطينية التى تصدر فى مصر لصاحبها محمد على الطاهر ولكنه أبقى على جريدة "اسرائيل" التى أنشأها ألبرت موصيرى منذ سنة ١٩٢٠ والتى كانت تدافع عن الصهيونية وتنشر الدعوة لها . وكان إسماعيل صدقى من قبل وهو وزير الداخلية سنة ١٩٢٩ قد اعتقل الوطنيين الفلسطينيين الذين هتفوا ضد "بلفور" صاحب الوعد المعروف ، أثناء مروره بالقاهرة لافتتاح الجامعة اليهودية فى فلسطين [1] .

وبالرغم من ذلك فقد كان التجاوب والتعاطف بسبب وحدة الظروف وتشابه المشاكل وتجاوب أصداء الكفاح عبر الحدود قد نمت بشكل ملحوظ . وكانت مصر ملجأ لقادة العرب الهاربين من الاضطهاد . ثم كانت مظاهرات الجماهير بالتأييد إرهاصا للمستقبل ، بالعمل الشعبى الواحد ضد العدو الواحد . ثم كان إرسال المعلمين واستقبال الطلبة ممهدا السبيل أمام الوحدة الفكرية الثقافية .

---

(١) الحركة السياسية في مصر طارق البشرى

وأخذ الاتجاه العربي يتبلور في مصر شيئا فشيئا رغم مقاومة السلطة لهذا الاتجاه إرضاء للمستعمر البريطانى ، وقد ظهر ذلك فى اتجاهات الحزب الوطنى وحزب الوفد ومصر الفتاة و "الإخوان المسلمون" إلا أنها كانت ترتبط عادة بالفكر الدينى أو بالشعوب الشرقية على وجه العموم. ثم بدأ الاتجاه العربى يظهر فى كتابات بعض الكتاب والمفكرين فى فترة الثلاثينيات أمثال أحمد زكى باشا ومحمود عزمى وعبد القادر المازنى ومحمد على علوبة ومكرم عبيد وغيرهم . وأصبح من الواضح أن القومية العربية أصبحت عقيدة مقبولة فى الوطن العربى ولاسيما عند المثقفين ولكنها لم تكن مطبقة بشكل فيه الكثير من المعانى على الحياة السياسية اليومية [1] .

وكان موقف الحركة الوطنية المصرية من قضية فلسطين والقضية العربية عامة ، يتأثر كثيرا بأسلوب كفاح هذه الحركة ويصعب تصور أن يؤدى أسلوب الكفاح بكافة الوسائل "السلمية المشروعة" – أسلوب الحركة الوطنية بقيادة الوفد – إلى نتائج عملية أكثر فاعلية مما تحقق. فهو باعتباره (مشروعا) يقبل الحدود والفواصل القائمة . وباعتباره (سليما) تتحدد مساهماته أساسا فى الدعم السياسي.

ولا شك كان الهدف من قيام الجامعة العربية بإيعاز من بريطانيا "وقع بروتوكول الجامعة ٧ أكتوبر ١٩٤٤" هو أن تكون وعاء يربط بين دول الجامعة بحلف عسكري واحد يتم تكوينه على مراحل . وأن تكون الجامعة أداة لكبح الشعوب الثورية أو المتطرفة فى العالم العربى . وقد ذكرت عن ذلك جريدة الديلى تلجراف البريطانية (أن ظهور هذه الروح قد يؤدى إلى تخفيف حدة الروح الوطنية المصرية التى بدأت الظواهر تشير إلى وصولها إلى درجة خطيرة كما حدث عقب الحرب الماضية).

وجاءت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ والعالم العربى ممزق تتحكم فيه الأطماع والشهوات من الداخل والخارج، وتتحكم فى البلاد العربية أنظمة رجعية متحالفة مع المستعمرين الذين كانوا أول من عمل على إقامة إسرائيل "دولة اليهود".

ودخلت مصر حرب سنة ١٩٤٨ فجأة . ولكن ذلك كان محاولة لصرف نظر الشعب المصرى عن تردى الأوضاع الداخلية خصوصا بعد فشل عرض قضية مصر فى مجلس الأمن فى يوليو ١٩٤٧ والاضطرابات التى كانت تجتاح البلاد وكان أهمها ثورة ضباط البوليس أيام حكم وزارة النقراشى باشا.

كما كان التنافس بين العائلات المالكة فى مصر والسعودية والأردن والعراق أى بين الهاشميين والسعوديين وعائلة محمد على من الأسباب التى أدت إلى قرار الملك فاروق بدخول المعركة دون علم الحكومة فى ذلك الوقت.

---

(١) الحركة السياسية في مصر   طارق البشرى

ولكن لم تسر الرياح كما تشتهى السفن وحلت نكبة فلسطين . وتشرد الشعب الفلسطينى نتيجة مؤامرات الاستعمار والرجعية العربية المتحالفة مع الاستعمار. وعاد الظلام يرخى ظلاله مرة أخرى على العالم العربى وأصبحت البلاد العربية فى حاجة إلى تغييرات جذرية فى النظم القائمة بها . فقد ضاق الشعب العربى – الذى اندفع بكل عواطفه وأحاسيسه وروحه العربية ليساهم فى المعركة – وبدأت بذور الثورة تكتمل فى نفوس الشعب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ فى مصر بقيادة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ولقد شاءت الطبيعة أن تكون مصر بلدا عربيا تشبع بالثقافة والحضارة العربيتين مدة ثلاثة عشر قرنا ، وحين وجدت نفسها على عتبة مرحلة حاسمة من تطورها التاريخى ، لم تتمكن من أن ترجع التقهقرى إلى غابر الزمن لتعود إلى عبادة آثارها القديمة منقطعة عن ماضيها القريب المفعم بالحياة والوعود.

كان عليها أذن أن تتجه إلى المستقبل .. نحو العروبة ، تماما كما على نهر النيل أن يجرى فى اتجاه البحر المتوسط.

رأى عبد الناصر أن الحياة فى النصف الثانى للقرن العشرين ومجابهة المشاكل العالمية فى تعقيداتها وتقلباتها وتطوراتها ، دون الاعتراف بأن العروبة حقيقة موجودة ، هو إنكار لمغزى التاريخ ورفض لواقع لا يحتمل الجدل، لواقع له وجهة نظره ومصاعبه وتطوره وأسباب وجوده . لأول مرة منذ ألفى سنة أصبحت مصر حرة تماما يحكمها حاكم من أبنائها . وبدا أن الشعوب العربية التى كان يبدو عليها الإنهاك لدرجة دعت بعض الخبراء إلى القول بأنها على أبواب القبر ، استيقظت فى رعشة مادة ذراعيها نحو المستقبل.

رأى عبد الناصر أن يقتحم الحواجز والقيود والأساليب البالية التى فرضت على النضال المصرى والعربى ، وان يستخدم أساليب جديدة فى الكفاح تتفق مع تطورات حركات الشعوب المغلوبة على أمرها ، رافضا كافة الوسائل "السلمية المشروعة" التى سار عليها النضال العربى حتى عام ١٩٥٢.

بدأ عبد الناصر بمواجهة المشكلة الوطنية التى ظلت بلا حل أكثر من سبعين عاما تدور فى متاهات الوعود البريطانية ودهاليز عصبة الأمم المتحدة وقاعات المفاوضات . واستطاع من خلال "عودة الروح" إلى شعب مصر وبأساليب الكفاح الثورى والدبلوماسية التى حاك خيوطها مع زملائه بأناة وصبر وشجاعة ، متجاوبا مع بيئته المتحفزة و المعبرة عن أمانى الشعب فى الحرية والتقدم ، أن يجبر بريطانيا على الجلاء عام ١٩٥٤ ، أى بعد قيام الثورة بسنتين فقط .

بدأ عبد الناصر يتطلع بعد ذلك إلى وطنه الكبير .. الوطن العربى، وكان قد شعر أن المأساة التى يعيشها شعب مصر هى جزء من مأساة اكبر يعيشها الشعب العربى. وأن قدر مصر مرتبط بمستقبل الأمة العربية. وأن حرية مصر واستقلالها مرتبطان بحرية واستقلال الشعوب والدول العربية . ورأى أن العدو الذى يواجه العرب هو

الاستعمار الذى أنشب أظافره وبراثنه فى الجسد العربى وراح يمتص دماءه . وأن الإمبريالية – وهى صورة الاستعمار الحديث – تقسم العالم إلى فريقين من الدول ، دول أحرزت تقدما اقتصاديا وتكنولوجيا على حساب دول أخرى فُرض عليها التخلف فى المضمارين نتيجة لما نزع من ثرواتها وحريتها لتنعم بها طبقات المستغلين من الدول الإمبريالية. ووجد أن الأمة العربية ليست وحدها فى هذا النضال ضد الاستعمار فى صورتيه المباشرة ، والجديدة ، وأن هناك أمما وشعوبا أخرى قامت وما زالت تقوم بمعارك ضده فى حركات عالمية شاملة ، تتمثل فى يقظة الحركات الوطنية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، فضلا عن أن هناك مجموعة أخرى من الدول تبنت الأيديولوجية الاشتراكية ، مما جعلها فى صراع لا هوادة فيه مع الإمبريالية باعتبارها أعلى مراحل الرأسمالية المستغلة ، ومن ثم فهى بطبيعة الموقف حليفة قوية للحركات الوطنية الحديثة بحكم أن العدو فى الحالتين واحد.

وقد استعان الاستعمار من جانبه فى المنطقة العربية ، كما هو فى كل مكان آخر بمجموعة من أبنائها ارتبطت مصالحها بمصالحه واتحدت أهدافهما فى استغلال جماهير الشعب العربى الكادحة واستنزاف ثرواتها وأرضها . وعندما نحلل طبيعة تكوين هذه المجموعة التي يتآلف منها أذناب الاستعمار ، نجد أنها تتآلف من فئتين تتحكما فى مقاليد الأمور فى معظم البلاد العربية فى ظل الاستعمار وأساطيله :
طبقة من الإقطاعيين ، تلقوا الأرض مصدر قوتهم الاقتصادية والسياسية ، من يد حكام دخلاء على الوطن العربى مقابل خدمات يؤدونها لهؤلاء الحكام على حساب الشعب ، ويفرضون سيطرة إرهابية على الريف ، ويحتكرون لأنفسهم خيراته ، والأغلبية الساحقة من الفلاحين تعيش على الكفاف أو قد لا تجده . وكانت هذه الظاهرة بارزة فى مصر ممن مكنوا للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ .

وطبقة المستغلين الرأسماليين الذين كونوا ثرواتهم من خدمة المستعمر يتلقون الفتات الذى يلقيه إليهم ، ويفرضون على الجماهير الكادحة من العمال استغلالا أنانيا ويربطون اقتصاد المجتمع كله برأس المال الأجنبي ويضعونه في خدمته ويمكنون له موارد الثروة فى البلاد .

وبرغم ما بين هاتين الطبقتين من تناقضات أساسية فإنهما اتحدتا بحكم وحدة المصلحة فى ظل المستعمر وتحالفتا فى فرض ديكتاتورية رجعية على مختلف أجزاء الوطن العربى الذى جزأه الاستعمار حتى يستطيع أن يفرض سيطرته الكاملة عليه .

كان هذا هو العدو الذى يواجهه النضال العربى ويتحدى وعى الجماهير العربية ، ويقف عقبة كأداء فى سبيل تحقيق تطلعاتها.

وقد واجه عبد الناصر هذا العدو واستطاع أن يقلم أظافر هاتين الطبقتين فى مصر ويحطم نفوذها الاقتصادى والسياسى ، بل أنه استطاع أن يعزلهما عن شعوبهما فى كثير من البلاد العربية مما مكن لعديد من الثورات العربية التحررية فى العالم العربى.

وقد دخل عبد الناصر معاركه على المستوى القومى ضد محاولة جر مصر والبلاد العربية إلى الأحلاف الاستعمارية واستطاع أن يجمد "حلف بغداد" فى بغداد وحدها إلى أن تمكن شعب العراق من القضاء على هذا الحلف نهائيا فى ثورته المجيدة عام ١٩٥٨.

كما عمل على ربط كفاح الشعب العربى بكفاح شعوب العالم المناضلة ضد الاستعمار . وكان مؤتمر باندونج هو المنبر الدولى الذى ارتفع فيه صوت القومية العربية بشكل قوى وفعال ليؤكد حيوية الحركة القومية العربية وأنها بدأت مرحلة جديدة من النضال خارج الحدود والقيود التى فرضت عليها من قبل وليؤكد أن حركة الشعوب واحدة ضد عدو واحد هو الاستعمار .

ومن خلال هذا النضال عمل عبد الناصر على القضاء على الازدواجية التى كانت قائمة بين الفكر الاسلامى والفكر العربى ويوحدهما فى حركة سياسية واحدة ، تعتمد أساسا على الجماهير العربية ، التى أرست دعائم الحضارة الإسلامية منذ القرن السابع الميلادى والتى تحملت عبء الكفاح والنضال لنشر رسالة الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها . وبذلك قضى على المحاولات التى كانت تستغل فى الماضى للفصل بين الفكرين وأدت إلى فشل كل من الحركات الإسلامية والحركات العربية فى تحقيق أهدافهما.

وجاءت معركة ١٩٥٦ التى كانت نهاية حتمية لعدوان أعُد إعداداً خبيثا لا مبرر له مطلقا سوى الرغبة فى استعادة النفوذ المفقود ، والعودة إلى العصور الذهبية للاستعمار ، ومحاولة المستحيل لدفع عجلة التاريخ إلى الوراء . فالفرنسيون كانوا يعتقدون أن عبد الناصر هو سبب بلائهم ومصائبهم كلها خاصة ما يتعلق منها بحرب الجزائر ، والبريطانيون كانوا يهدفون إلى المحافظة على بترولهم واستعادة سيطرتهم على الطريق الإمبراطورية الشهيرة. وقد ثبت أن معركة السويس لم تكن معركة مصر وحدها . ولكنها كانت معركة الشعب العربى كله الذى شارك فيها بأحاسيسه ووجدانه . وكانت الشرارة الأولى لتغيرات اجتماعية وسياسية كبيرة فى كثير من البلاد العربية . بل لقد اعتبرتها شعوب العالم الثالث فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية معركتها ، فلأول مرة يناضل بلد صغير ضد قوى استعمارية كبيرة ويستطيع أن يثبت وجوده ويخرج منتصراً. مما كان حافزا لشعوب كثيرة لتحصل على استقلالها السياسى فى الستينات من هذا القرن أى فى أعقاب معركة السويس ، كما عبر عن ذلك أحد الساسة الأفريقيين الذين حضروا اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة إبان حرب السويس.

وتعتبر الحركة القومية العربية الداعية إلى الوحدة التى يجسدها فكر عبد الناصر ، والذى يطلق عليها اسم "الناصرية" ثورة على ثلاثة أوضاع سياسية مترابطة.

فالهدف الأول الأكثر وضوحا للحركة "الناصرية" هو أنها احتجاج من الشعوب العربية على تجزئتها إلى عدد من الدول المستقلة. فقد استطاع فكر عبد الناصر أن يُبرز حقيقة ثابتة من حقائق التطور البشرى ، وهى ضرورة التكتل والتجمع فى سبيل الاستزادة من الكرامة والأمان. ويعبر الميثاق عن هذا الاتجاه تعبيرا جميلا بقوله

"أصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الأمر الطبيعى لأمة واحدة فرقها أعداؤها ضد إرادتها وضد مصلحتها ، والعمل السلمى من أجل تقريب هذه الوحدة ثم الإجماع على قبولها تتويجا للدعوة والعمل معا". كما أن تاريخ هذه المنطقة يثبت بما لا يدع مجالا للشك أهمية الوحدة والترابط بين شعوب هذه المنطقة ليس لأسباب سياسية واقتصادية وثقافية فقط بل من الناحية الاستراتيجية أيضا ، فالغزوات التى كانت تستهدف هذه المنطقة كانت دائما تتحطم نتيجة الجهد المشترك بين الشعوب العربية. وقد وعى حكام مصر هذه الحقيقة. فحينما غزا التتار المشرق العربى واجتاحوا بغداد ، خرج لهم المصريون وهزموهم فى معركة "عين جالوت" . وكذلك خرج صلاح الدين الأيوبى ليهزم الصليبيين فى "حطين" . وحينما بدأ العثمانيون غزو مصر خرج المصريون لملاقاتهم فى "مرج دابق" . وبهزيمة المصريين فى هذه المعركة فُتحت أبواب مصر للغزو العثمانى . ويقول "ليونارد باندر" فى كتابه الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط : "ولا ريب أن فى وسع الذين يتطلعون إلى مزيد من المنطق فى الأسباب التى أدت إلى نجاح الناصرية على صعيد الحركة الوجودية العربية، أن يطبقوا تحليل الأستاذ "كارل دويتش" لتكوين المجتمعات القومية فى أوربا، إذ أن هذا التحليل قد ينطبق على المنطقة العربية أكثر من انطباقه على المنطقة التى تولى الأستاذ دراستها . وتؤلف مصر على ضوء هذا التحليل نواة هذه المنطقة لا بفضل موقعها الجغرافى أو ثروتها الفائضة فحسب ، بل وبفصل سعة مساحتها ، ووفرة سكانها ، واستقرارها ، وأمنها النسبى وقيادتها الفكرية للوطن العربى أيضا ".

وقد أوضح عبد الناصر فى كثير من خطبه وأحاديثه ورسائله أن الخلافات بين الدول العربية ليست مصطنعة أو سطحية ، وإنما هى انعكاس للتناقضات الواقعية المتجسدة فى الوضع العربى . لكن التضامن العربى ضرورى لمواجهة الأخطار الخطيرة والأعداء الأقوياء. وأن العرب فى حاجة إلى تضامن صحيح لا إلى تضامن صورى . يضاف إلى هذا أن التضامن يجب ألا يحد من الجهد العربي أو يعيق من حرية الطلائع العربية. وقال عبد الناصر أن مصر أيدت كل بلد عربى فى نضاله من أجل حريته ، وأن قضية فلسطين كانت الحافز الذى دعاها إلى مقاومة حلف بغداد ، والدافع الذى حفزها على شراء الأسلحة من الكتلة السوفيتية لتحطيم احتكار السلاح ، كما أوضح أن مصر احتملت العبء الرئيسى فى دعم نضال الجزائر من أجل الحرية ، كما ساعدت تونس والمغرب والسودان وعمان واليمن الجنوبية ولبنان حتى الأردن فى الحصول على استقلالها. وقد قامت مصر بذلك أداء منها لواجب عليها ، إذ أنها تعتقد أن شعبها بطاقاته المادية والمعنوية الضخمة ، قد وضعه القدر فى مركز طليعة النضال العربى وقاعدته المنيعة وليست السيطرة هى دور القاعدة بل الخدمة الصادقة الأمينة . وقال عبد الناصر أن إيمان مصر بالقومية العربية إيمان صادق نابع من التيار القومى المندفع لتحقيق الوحدة العربية الشاملة مضيفا أن ما يهمها هو إرادة الشعب العربى أكثر من الشكل الدستورى. وقد أكد عبد الناصر فى مواضع ومناسبات كثيرة أن سياسة مصر هى انعكاس لوجودها ، وهو الوجود الذى لا تستطيع أن تتنكر له. لكن هذا لا يعنى أنها تريد أن تفرض سياستها على الدول العربية الأخرى . إذ أنها تعرف أن كل دولة عربية أقدر من غيرها على مواجهة ظروفها الخاصة . ولها الحق فى أن تكون لها الكلمة الأخيرة والقول الفصل فى هذه الظروف .

أما الهدف الثانى للحركة "الناصرية" فهو احتجاج على النظم الاقتصادية والاجتماعية الراهنة فى جميع البلاد العربية وعلى تركيب السلطان السياسى فى بعضها . ولا يمكن فهم هذا الهدف إلا على صعيد التبدل الاجتماعي

الذي حدث في مصر وفى كثير من البلاد العربية .. وقد كان من المعروف أن البنيان التقليدى للمجتمع العربى، تعرض للضعف نتيجة للضغوط الأوربية الغربية من اقتصادية وسياسية وعسكرية . ومع ذلك فان عناصر جديدة خُلقت فى هذا المجتمع أخذت تتحدى التوزيع الراهن للقيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وبالرغم من اعتدال هذه الحركة الاجتماعية فى بدايتها ، فان نزعتها المتطرفة أخذت فى الازدياد مع اتساع صفوف هذه العناصر الجديدة. وقد أبرز الميثاق الوطنى كثيرا من معالم هذه التحولات الاجتماعية كما أظهرت تطبيقاتها فى المجال العملى فى مصر انعكاسات لها آثارها فى كثير من البلاد العربية المتحررة ، بل وفى كثير من بلاد العالم النامى . إلا أن هذا الموضوع باتساعه ودقته يحتاج إلى عدة بحوث لبيان دور فكر عبد الناصر فى التحولات الاجتماعية والاقتصادية التى تجتاح الوطن العربى . والتى أدت إلى ثورة اقتصادية قومية لزيادة الإنتاج وتحقيق عدالة التوزيع . وخلق الفرص المتكافئة أمام الجميع وإذابة الفوارق بين الطبقات والتخطيط لمضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات . وقد كان أسلوب ذلك هو تحديد ملكية الأرض وتأميم الاحتكارات الأجنبية ، وكذلك تأميم المصارف وشركات التأمين كيلا تكون وسيلة للتحكم فى اقتصاديات البلاد ، بالإضافة إلى وضع سياسة ضرائبية جديدة وإنشاء الجمعيات التعاونية .. الخ بما يضع البلاد فى طريق البناء الاشتراكى والذى يعتبر فيه الاشتراكية حلا حتميا لمواجهة مشكلة التخلف ، وهى سبيل الوصول إلى تحقيق العدل الاجتماعى ، كما أنها كانت توسعا عاطفيا فى الفكرة القومية لتشمل المشاكل الناشئة عن ارتخاء الصلات الاجتماعية التقليدية السابقة .

وكان الهدف الثالث للحركة "الناصرية" هو الاحتجاج على استقطاب القوى الدولية فى كتلتين متصارعتين . وهذا هو الذى أملى على عبد الناصر اتخاذ سياسة عدم الانحياز لأى من الكتلتين العالميتين حفاظا على حرية واستقلال الشعوب العربية بعيدا عن كافة المحاولات لوضعها داخل مناطق النفوذ . وقد ناضل عبد الناصر لتحقيق هذه السياسة ، وكان أحد ثلاثة قامت عليهم هم عبد الناصر ونهرو وتيتو. وقد ارتبطت سياسة عدم الانحياز بحركة القومية العربية التى تهدف إلى تحقيق الوحدة ، ليس بهدف المناورة أو اللعب على الكتلتين الكبيرتين ولكنه تأكيد لحركة التحرر ، التى ارتبطت بها حركة القومية العربية . فهى مبدأ أكثر منها سياسة طالما أن البلاد العربية لا تزال فى مراحلها الأولى من التنمية الاجتماعية والاقتصادية وحاجتها إلى عشرات السنين لكى تطوى قرون التخلف التى فُرضت عليها من قبل الاستعمار . وهى ليست وليدة حوافز انتهازية أملتها مصالح مصر ومخططاتها – كما يحاول البعض تصوير ذلك – ولكنها سياسة أصيلة تعبر عن الإيمان الصادق المطلق بالسلام العالمى عن طريق التعايش السلمى ووقف تقسيم العالم إلى كتل متصارعة على النفوذ والسلطان. ومن العسير أن ينظر إليها كشئ مختلف عن كونها عنصراً كامنا فى القومية العربية . كما أنها السياسة

الخارجية الوحيدة التى تضمن تحقيق الدوافع الأساسية للسلوك الانسانى. فهى توازن بين الأمة والفرد وتؤكد أن كلا منهما يندفع ويتأثر بمجموعة من الحاجات التى تنظم بصورة حركية فى شكل هرمى . وقد أوضحت هذه الحاجات فى الحفاظ على النفس والمتطلبات الاقتصادية والأمن والسلام، والحرية والاستقلال واحترام الذات.

هذه لمحات عن فكر عبد الناصر القوى الذى يحتاج إلى مجلدات لإبرازه على حقيقته الحية النضرة. لقد كافح عبد الناصر من أجل الأمة العربية ومستقبلها . وكانت روحه لا تعرف اليأس أو الهزيمة ، فقد كرس حياته من أجل القضية الثورية لجماهير شعبنا العربى فى كل مكان . وكانت حياته العظيمة زاخرة بالصعاب والتضحيات . ولكنها كانت حياة نبيلة وغنية ونقية ، استطاعت أن تطبع بصماتها على حياة الملايين من البشر . وكانت إرادته الثورية انعكاسا لإرادة الجماهير وتصميمها لتحقيق النصر فى كافة الميادين . لقد ناضل عبد الناصر من أجل شعبه ومن أجل الجماهير المضطهدة فى كل مكان. فلم يكن مناضلا وطنيا فقط ، بل كان من أبرز مكافحى حركات التحرر الوطني في القرن العشرين . لقد عمل على تحقيق التضامن العربى والدولى من أجل القضية العربية ، وقضية الثورة الفلسطينية ، ومن أجل تعبئة الجهود لدعم ثورة الشعوب ضد الاستعمار .

لقد قال عبد الناصر فى المؤتمر القومى العام ١٩٧٠/٧/٢٦ :

"نحن نريد السلام ولكن السلام بعيد . ونحن لا نريد الحرب ولكن الحرب من حولنا . وسوف نخوض المخاطر مهما كانت دفاعا عن الحق والعدل ، حق وعدل لا سبيل لتحقيقهما غير طرد قوى العدوان من كل شبر من الأرض العربية المحتلة سنة ١٩٦٧ .. من القدس .. من الجولان.. من الضفة الغربية .. من غزة .. من سيناء .. وحق وعدل لا سبيل لتحقيقهما غير استعادة الشعب الفلسطينى لحقوقه الشرعية وخروجه من خيام اللاجئين ليدخل مدنه وقراه ومزارعه وبيوته . ويعود مرة أخرى إلى قلب الحياة بعد أن أرغمته الظروف أن يبقى أكثر من عشرين سنة على هامش الحياة ..

هذه قضية شعبنا وقضية أمتنا العربية"

أنشأ عبد الناصر وشارك فى قيادة مجموعة عدم الانحياز . هل يوجد انحسار لهذه الحركة ؟ وما دورها فى العالم بعد التغيرات الدولية الأخيرة والتى لم يشهدها عبد الناصر ؟

انقسم العالم بعد الحرب العالمية الثانية إلى كتلتين جبارتين تواجه كل منهما الأخرى بنفوذها وأفكارها وقواها البشرية والعلمية والاقتصادية وجيوشها وأسلحتها التقليدية والنووية. وفى هذه المرحلة ظهرت الدول الآسيوية والأفريقية الحديثة الاستقلال .. وكان عليها أن تجد أسلوبا سليما للتعامل فى الشئون الدولية يحفظ لها استقلالها وسيادتها وحريتها فى التصرف . وكان هذا الأسلوب هو عدم الانحياز الذى صاغه ودعمه عبد الناصر ونهرو وتيتو. ورفض مؤسسو سياسة عدم الانحياز أن يكونوا كتلة ثالثة .. وقد أشار جمال عبد الناصر إلى هذه الحقيقة الأساسية بقوله "إن الدول الملتزمة بسياسة عدم الانحياز لا ينبغى أن تصنع بنشاطها كتلة دولية ثالثة .. أننا نعيش فى عالم يعانى من الصراع بين كتلتين ولا نتصور أن تدخل الحلبة كتلة ثالثة تزيد من حدة هذا الصراع بدلا من أن تخفف من وطأته".

وكان مؤتمر بلغراد الذى عقد فى سبتمبر سنة ١٩٦١ هو شهادة الميلاد الرسمية لتيار عدم الانحياز . ولكن عدم الانحياز يرجع فى الواقع إلى مؤتمر باندونج للتضامن الأفريقي الآسيوى الذى عقد فى أبريل سنة ١٩٥٥ ونشأت فيه فكرة الحياد الإيجابى وهى نفس الفكرة التى تطورت فيما بعد إلى مفهوم عدم الانحياز الذى هو عبارة عن سياسة إيجابية تطبقها الدول النامية المستقلة باختيارها ومسئوليتها ولا تفرض عليها من الخارج ، كما انه يدعو إلى انتهاج سياسة مستقلة إزاء المشاكل الدولية بوحى من المصلحة الوطنية وصالح السلام العالمى دون التزام مذهبى سابق .

وكان تيار عدم الانحياز من أهم التطورات الدولية التى ظهرت فى عصر الانقسام الذرى . وخلال الخمسة عشر سنة الماضية قامت دول عدم الانحياز بأكبر الأدوار وأهمها داخل الأمم المتحدة وخارجها. ولم يقتصر هذا الاتجاه على الدول الأفريقية والآسيوية . وإنما تعداها إلى القارات الأخرى فنشأت اتجاهات قوية لعدم الانحياز فى أمريكا اللاتينية وفى أوربا نفسها وكان ذلك كله انتصار لفكرة عدم الانحياز على المستوى العالمى .

<u>ويمكن إجمال بعض النتائج الأساسية لسياسة عدم الانحياز فى الآتى</u> :-

١- ساهمت سياسة عدم الانحياز فى المحافظة على استقلال الدول النامية الحديثة الاستقلال. فقبل ظهور هذه السياسة كانت الدول التى تحصل على استقلالها إما أن تقع تحت النفوذ الاستعمارى مرة أخرى بشكل أو بآخر وإما أن تنضم إلى الكتلة الشرقية . لذلك أصبحت سياسة عدم الانحياز هى الطريق الذى تتخذه حركات التحرر الوطنى وأمكن بواسطتها صيانة استقلال دول كثيرة .

٢- قام تيار عدم الانحياز بدور فعال فى الحد بل تصفية كثير من الأحلاف العسكرية التى أقامها الغرب لضرب نطاق من الحصار حول المعسكر الاشتراكى وللقضاء على حركات التحرر الوطنى ذات البعد

الاجتماعى . وكان انتصار سياسة عدم الانحياز ضربة عنيفة ضد هذه السياسات مما جعل الأحلاف العسكرية تفقد الكثير من هيبتها وأهميتها .

٣- أمكن لتيار عدم الانحياز أن يُوجد علاقة بين العالم الثالث النامى والكتلة الشرقية ، وإن كان ذلك لا يعنى بالضرورة الانضواء تحت لواء المعسكر الشرقى . وقد أثبت هذا التيار أنه ليس رصيداً للإمبريالية العالمية ، بل على العكس من ذلك نصير للثورة التقدمية العالمية. لذلك أقدمت الدول الاشتراكية على تأييد هذا التيار وتقديم كافة المساعدات له.

٤- وقف عدم الانحياز إلى جانب السلام العالمى فى كل القضايا والمشاكل الجزئية التى تثور فى الأمم المتحدة وخارجها مثل نزع السلاح والحد من استخدام الأسلحة الذرية وتصفية الاستعمار ومحاربة التفرقة العنصرية والتخلف الاقتصادى والمطالبة بالتقليل من الهوة بين الدول المتقدمة والنامية ومحاولة التقريب بين وجهات نظر الشرق والغرب.

هذه هى بعض النتائج الإيجابية التى أمكن لسياسة عدم الانحياز تحقيقها . ولو أنها لا تسير بنفس الحماس والقوة حاليا كما كانت قبل وفاة نهرو وعبد الناصر . ومحاولات الدول الكبرى استقطاب كثير من الدول الصغرى إلى جانبها فى الصراع العالمى الذى بدأت تتعدد فيه مراكز القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وبالرغم مما يردده البعض عن سياسة الوفاق بين الدول الكبرى واحتمال تأثر عدم الانحياز بهذه السياسة فإننا نعتقد أن ذلك غير صحيح فلا تزال التناقضات السياسية والأيديولوجية والقومية قائمة بين الكتل الدولية الكبرى مما يمكن مجموعة عدم الانحياز من الإصرار على السير فى سياستها التى قامت عليها . إلا أنه من الضرورى تطوير هذه السياسة لتقوم العلاقات بين دول عدم الانحياز ليس فقط على أساس سياسى بل على أسس اقتصادية واجتماعية حيث يوجد تشابه كبير بين هذه الدول فى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التى تواجهها . وبهذا يمكن الحد من سياسة الاستقطاب التي تمارسها الدول الكبرى .

لقد كانت سياسة عدم الانحياز إحدى الإنجازات الكبرى للفكر الناصري على الصعيد الدولي وأمكنها أن تؤدى دوراً إيجابيا فى السياسة العالمية .

الحرية والديموقراطية

يغيب عن بعض الذين يتناولون قضية الحرية والديموقراطية، عدة حقائق ترتبط بالظروف والتطورات التى تواجهها هذه القضية ، لا يعطونها حقها من الدراسة والبحث ، بل أن البعض يناقشون القضية من منطلق أكاديمى بحت ، ويستندون فى ذلك إلى آراء مفكرى القرنين الثامن والتاسع عشر ، دون وضع اعتبار لحقيقة التحولات الاجتماعية التى حدثت فى العالم منذ أوائل القرن العشرين ، والذى بدأت تسير فيه الحرية الاجتماعية جنبا إلى جنب مع الحرية السياسية وانعكاس ذلك على النظم الرأسمالية وعلى حركات التحرر الوطنى فى العالم خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية ، بحيث اعتبر العصر الذى نعيش فيه هو عصر انتشار الاشتراكية بمفهومها السياسى والاجتماعى . بل أنه لما يسترعى النظر ، أن الذى يسيطر على الحكم فى دول غرب أوروبا حاليا ، هى الأحزاب الديموقراطية الاشتراكية التى هى فى الواقع محاولة من النظم الرأسمالية لاستقطاب المد الاشتراكى الذى يجتاح عالم اليوم ، مع تراجع ملحوظ بالنسبة لأحزاب المحافظين والأحرار ، التى هى من ناحية الواقع التاريخى كانت ثورة فكرية قامت قبل كل شئ لصالح الملاك فى ميدان جديد له أهمية جديدة هو الميدان الصناعى ، وحينما يتكلمون عن "حقوق الإنسان" إنما يقصدون تلك الطبقة المحدودة من الناس الذين يملكون وسائل الإنتاج فى المجتمع .

بذلك أصبحت الاشتراكية هى الإطار المميز للنظم السياسية سواء فى شرق أوربا أو غربها، وأن اختلفت المدارس الفكرية التى تنتمى إليها هذه النظم.

إن ذلك يوضح لنا حقيقة هامة، هى أن قضية الحرية ليست قضية ثابتة أو جامدة . ولا يمكن معالجتها فقط من وجهة النظر الفلسفية، بل أنها حقيقة لا سبيل إلى فهمها إلا فى نطاق الوجود الانسانى بأكمله بكافة جوانبه المادية والروحية. لذلك فهى ترتبط بمدى ما يحققه الإنسان من تطور فى حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية. ولا يمكنها أن تظل مرتبطة بمفاهيم قديمة أو موروثة ، أو تكون مجرد قضية فلسفية بعيدة عن حقائق الحياة وإلا حكم الإنسان على نفسه بالفشل والجمود .

وقد عبر كثير من المفكرين عن آرائهم ونظرتهم الجديدة إلى حرية الإنسان أمثال سان سمون وفورييه وروبرت اون وهارولد لاسكى وغيرهم . والتقى فكرهم فى حقيقة هامة وهى أن العبرة ليست فقط بالحريات السياسية دون أن يكون لها مضمون اجتماعى، وإلا كانت مجرد شعارات جوفاء تستخدم لتخدير الشعوب.

أن تحقيق حرية الإنسان تقتضى إزالة كافة القيود التى تعوق حريته ، سواء كانت هذه القيود سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية . وأن من أهم الشروط لتحقيق الحرية هو تحرر الإنسان من الفاقة والحاجة أى تحريره من الاستغلال والظلم الاجتماعى ، والتحرر من الخوف بأن يشعر الإنسان بالأمان فى المجتمع الذى يعيش فيه ، بل عليه أيضا أن يتحرر من الجهل فإذا حرم الإنسان من المعرفة فسيكون عبدا لحفنة من

المحظوظين الذين أتيحت لهم فرصة المعرفة ، فالمعرفة تفتح آفاقا جديدة أمام الإنسان ، وتسمح بتحديد الطرق والوسائل لاكتساب السيطرة على القوانين الموضوعية ، وتقود مباشرة إلى قدر أكبر من الحرية . أننا نعيش فى عالم ملئ بالأخطار ، يتعين علينا أن نجازف بشق طريقنا خلاله . وتحت مثل هذه ا لظروف لا يمكن أن يكون للحرية أية قيمة إلا إذا كان العقل مدربا على استخدام حريته. فمنذ أن تمكن العلم من فرض سيطرته على الطبيعة ، تغيرت بذلك موارد القوة والسلطة ، أصبح حق الرجل الحديث فى التعليم شرطا أساسيا لحريته . ولكن الحرمان من المعرفة ليس إنكارا للحرية وإنما هو إنكار للمقدرة على استخدام الحرية للوصول إلى أهداف عظيمة . والرجل الجاهل قد يكون حرا فى جهله ولكنه لا يستطيع فى عالمنا أن يستخدم حريته فى تحقيق أى تأمين لسعادته .

وفى ذلك يقول "جيفرسون" : "لا يتأتى للشعب أن يكون جاهلا وحرا وفى حالة تحضر أيضا ... ان ذلك ضرب من المحال" . ويقول "فرانكلين روزفلت " : أننا لا نستطيع أن نفترض فى غير مبالاة – أن أمة ما تتصف بالقوة والعظمة لمجرد أنها تتمتع بحكومة ديموقراطية . فقد علمتنا الأيام أن الدول الديموقراطية التى تمزقها الخلافات الداخلية وتضعفها الريبة المتبادلة الناشئة عن الظلم الاجتماعى . لا يمكن أن ترقى إلى مصاف الديكتاتوريات التى تتمكن – مع ما تتصف به من قوة – من القضاء على ما يعتريها من انقسامات داخلية فلكى تظل الديموقراطية متمتعة بالحياة ينبغى أن تصبح قوة فعالة فى حياة الناس اليومية ، وينبغى أنها تجعل الرجال والنساء الذين تطمع فى ولائهم لها ، يشعرون أنها معنية حقا بأمن كل فرد وطمأنينته ، وأنها على قدر من التسامح بحيث تكفل التفاف جميع المواطنين حول وحدة قومية لا غناء عنها ، وأنها ذات طبيعة محاربة تؤهلها للمحافظة على الحرية فى وجه الاضطهاد الاجتماعى الذى يهددها فى الداخل ، والعدوان العسكرى الذى يهددها فى الخارج ".

من هذا يتضح لنا أن مفهوم الحرية قد تطور عبر القرون والأجيال. فالحرية لم تصبح قاصرة على السادة دون العبيد كما نادى بذلك فلاسفة اليونان الأقدمين . كما أنها لم تصبح قاصرة على الحرية السياسية كما نادى بذلك فلاسفة عصر الثورة الفرنسية ، بل أصبحت فى عصرنا الحاضر تعنى الحرية السياسية والحرية الاجتماعية وأصبح كل منهما يكمل الآخر.

الحرية والديموقراطية :

أن الحرية تتصل بحياة الفرد وتطلعاته أكثر مما هى متصلة بحياة المجتمع . ولكننا إذا اعتبرنا أن المجتمع هو مجموع الأفراد الذين يكونونه ، فهى أيضا مرتبطة بحياة هذا المجتمع . والفرد بطبيعته ضعيف أما المجتمع . إلا أن إرادته الحقيقية متماثلة مع أهداف التراث العام للمجتمع الذى ينتمى إليه . كما أنه لا يستطيع أن يصنع بنفسه هدفه فى الحياة وإنما مجموعة الأهداف فى المجتمع الذى يجد نفسه فيه ، هى التى تصنع هذا الهدف. وهذا لا يتأتى إلا بفضل الحياة الاجتماعية التى تعطى للحياة معنى ومغزى وإتجاهاً.

أن حرية كل فرد مرتبطة بحرية المجتمع الذى يعيش فيه ، ويجب أن تخضع لحرية ذلك المجموع الأكبر الذى يستمد منه الفرد كيانه بأكمله . ذلك أن حقوق كل منا تعتمد على السور الوقائى للتنظيم الاجتماعى. فنحن لسنا أحراراً لأنفسنا ، بل للمجتمع الذى يعطينا كياننا . فقد مضى الوقت الذى كانت فيه حرية الفرد فوق حرية المجتمع . فإذا ما أطلق المرء العنان لرغباته – وهو ما يعتبر أهم علامات الحرية – فان ذلك يمكن أن يقوده إلى النقيض تماما . وتصبح الحرية حرمانا من الحرية . يقول "سبينوزا" : "إننى أعتبر العجز الانسانى عن التحكم فى العواطف أو الاعتدال فيها عبودية ، فحين يكون الإنسان فريسة لعواطفه ، فانه لا يكون سيد نفسه ، وإنما هو يرقد تحت رحمة المصادفة ، حتى أنه كثيراً ما يجبر – وهو يرى ما هو أفضل له – على أن يتبع ما هو أسوء".

فإذا كانت الحرية بمفهومها المتطور هى الهدف الذى نسعى إليه ، فان الديموقراطية هى هى الإطار الذى يمكن عن طريقه أن يمارس الفرد والمجتمع حريته الكاملة من خلاله . وكما أصبح للحرية مفهومها السياسى والاجتماعى ، إلا أنها لا تؤخذ بمفهومها السياسى والاجتماعى فقط ، فهى أعمق من ذلك بكثير . فهى فلسفة متصلة بعقل الفرد وكيانه وحياة المجتمع الذى يعيش فهى . وهى ليست الحرية كما يتصورها البعض ، ولكن – كما يقول لاسكى – الأسلوب الذى يؤدى إلى قيام الحرية ويضمن بقاؤها ، وإطار لحكومة يتوافر فيها الآتى :

١- إعطاء الجماهير الفرصة للتعبير عن آرائها بحرية تامة ، وإلا يكون ذلك وقفا على طبقة أو فئة بذاتها .
٢- أن القوانين التى تصدرها هذه الحكومة سوف تربط مصالح أكبر الجماهير الشعبية بدرجة متساوية وألا يكون هدف هذه القوانين خدمة طبقات أو شرائح معينة فى المجتمع.

فالديموقراطية ليست مجرد شكل ، بل أهم من ذلك محتواها ومضمونها . يقول البعض أن الديموقراطية معناها الأحزاب ، وهذا غير صحيح فالأحزاب مجرد شكل من أشكال الديموقراطية وليست هى جوهرها ، بل إنها فى حقيقتها الواجهة السياسية لطبقة اجتماعية أو مصالح اقتصادية معينة.

قد تكون الأحزاب وسيلة من وسائل الديموقراطية، ولكن إذا لم يكن هناك توازن بين القوى الاقتصادية والقوى السياسية فى المجتمع، بمعنى أن يفوق التقدم الاقتصادى التقدم السياسى، فان الحرية تصبح منعدمة حيث يسيطر رأس المال على كافة اوجه النشاط فى المجتمع، بما لا يحقق الحرية أو الحياة الديموقراطية الحقة للمواطنين. ولدينا أمثل كثيرة عن دول متقدمة تنطبق عليها هذه الحالة رغما عن أن نسبة الأمية فيها لا تتجاوز ١٪ أو ٢٪ .

ويقول هارولد لاسكى "ليس معنى الحرية أو الحياة الديموقراطية هو قيام الأحزاب وتعددها. فقيام الدولة ذات الحزبين بل حتى المتعددة الأحزاب ، ليست بالضرورة ضمان للحرية ، فهذا يعتمد أولا على نوع وشكل توازى القوى الاقتصادية فى المجتمع وثانيا على علاقاتها ببنائه السياسى".

كما يؤكد هارولد لاسكى على أن قيام نظام الأحزاب السياسية فى مجتمع بناؤه الاجتماعى متخلف ، فان ذلك يؤدى إلى تقوية الاوتوقراطية وتصبح الحرية والديموقراطية وقفا على الطبقات التى تملك القوى الاقتصادية فيه.

هذا وتدور فى كثير من الأوساط السياسية فى أوربا الغربية مناقشات حول تطوير النظام الديموقراطى البرلمانى الذى لم يعد يلاحق التطور العلمى والتكنولوجى وأصبح متخلفا عن متطلبات العصر ، حيث تميل الحكومات إزاء هذا التطور إلى تركيز السلطة فى أيديها بل فى عدد من الخبراء وهذه هى المحنة التى تواجهها الديموقراطية الغربية فى وقتنا الراهن وتحاول إيجاد الصيغة الديموقراطية التى تتلاءم مع عصر ا لعلم والتكنولوجيا . كما أننا نجد صور أخرى لتطور الديموقراطية فى يوغوسلافيا حيث تقوم بعض المجالس النوعية المتخصصة بجانب المجلس الاتحادى الذى يعمل على المستوى السياسى وذلك لمواجهة التعقيدات التى يفرضها عصرنا الحاضر .

إن ذلك يدلنا على أنه سواء فى غرب أوربا أو شرقها تجرى المحاولات، لتطوير الديموقراطية بمضمونها وشكلها لتساير حركة التطور التى تسير فيها المجتمعات الإنسانية .

الواقع المصرى :

أن الواقع المصرى الذى لم يحاول كثير من الباحثين التعرف على حقيقته، بل يتغاضون عنه عند بحث قضية الحرية والديموقراطية فإنه مجتمع نام تبلغ نسبة الأمية فيه حوالى ٧٠٪ بمعنى أن ٧٠٪ من أفراد المجتمع لا يستطيعون ممارسة الحرية إلا نظريا بسبب الحاجة إلى المعرفة. كما أن التخلف المادى نسبيا والتفاوت الطبقى الذى أخذ يتزايد فى السنين الأخيرة، أصبح يشكل من ناحية أخرى عائقا جديداً ضد الممارسة الديموقراطية من قبل الأغلبية التى لم تؤمن بعد من الناحية الاقتصادية أو تحصل على حقوقها الاقتصادية كاملة . وليس لديها وقت الفراغ لكى تستطيع أن تفكر سياسيا. حيث أصبح جهدها مركز للحصول على لقمة العيش.

ومعنى هذا أننا نواجه تخلفا ماديا وثقافيا ينعكس بدوره على قضية الحرية والديموقراطية . ليس معنى هذا إنكار الحرية ولكنه يضع العقبات فى سبيل ممارسة الحرية من قبل الأغلبية. كما أن مصر بموقعها الإستراتيجى المتميز . وكجزء من العالم الثالث أو العالم الرابع الذى تجرى على أرضيته مختلف أنواع الصراع بين الدول الكبرى المتقدمة ، يجعلها فى مهب تيارات سياسية واجتماعية مختلفة ، تغرى البعض على إتباع أى منها ، باعتبار أنها أظهرت نجاحا فى بلادها ، ومن الممكن أن تؤدى إلى نفس النتائج إذا ما طبقت فى مصر . دون وضع أدنى اعتبار لطبيعة الواقع المصري وخصائصه الإيجابية والسلبية المختلفة ومدى التطور الذى وصل إليه.

هذا علاوة على ما يجب أن تمثله مصر فى الوطن العربى من قوة طليعية تقدمية ، تعبر حقيقة عن ضمير الأمة العربية . وفى الوقت الذى ما زلنا نخوض فيه معركة ضارية ضد الصهيونية والإمبريالية العالمية .

إن هذا الواقع بعوامله المؤثرة المحلية والعربية والدولية تجعلنا نأخذ سبيل الحذر فى أى طريق نسلكه لبناء مستقبلنا السياسى والاجتماعى . وكان من الضرورى ونحن فى مرحلة ثورية أن يقوم تحالف قوى الشعب العامل ليكون بديلا ثوريا لتحالف الإقطاع ورأس المال المستغل . وقد استطاعت قوى العمال والفلاحين والمثقفين من خلال هذا التحالف أن تشق طريقها إلى قمة العمل السياسى والاجتماعى ، بعد أن كانت محرومة منه فى الماضى . واستطاعت الرأسمالية الوطنية المنتجة أن تبلور وجودها فى مواجهة الرأسمالية البيروقراطية المستغلة المتحالفة مع رأس المال الأجنبى . وأمكن إلى حد ما تقليل عاملى عدم المعرفة وعدم الاكتفاء الاقتصادى على قضية الحرية والديموقراطية . كما أمكن بدرجة معينة تحقيق الديموقراطية الاشتراكية على أساس كمى وكيفى . كمى من ناحية شمولها وممارستها على كافة المستويات وكيفى من حيث ارتباط الديموقراطية السياسية بالديموقراطية الاقتصادية اللتان هما جناحا الحرية .

إلا انه من أهم العقبات التى وقفت فى هذا الطريق ، هو تفشى البيروقراطية داخل التنظيم السياسى الذى يمثل فلسفة التحالف بحيث أصبح العمل السياسى وظيفة أكثر منه رسالة . وقد نجحت البيروقراطية فى تخدير الجماهير وتقسيمها وإضعافها وخداعها بغية تنفيذ سلطتها المطلقة عليها. ولكنها فشلت فى إعطائها تربية ثورية. فبعد أن أخمدت اندفاع الجماهير الشعبية ، أصبح من العسير عليها أن تثير فيها جرأة ثورية . وهى تفضل صداقة ومساعدة ، الطبقات الرجعية أو الذين يناهضون الفكر الثورى أو البيروقراطيين من النقابيين بما يتناقض مع فلسفة التحالف ، التى تهدف إلى تعبئة الجماهير سياسيا واجتماعيا ونضاليا . والعمل على إذابة الفوارق بين الطبقات وحل التناقضات غير العدائية فيها . بل أنه بعد أن زادت حدة هذه التناقضات نتيجة السياسة الاقتصادية المتبعة ، مما أدى إلى اختلال التوازن بين قوى التحالف تطرح الشعارات "السلام الاجتماعى" و "السيولة الطبقية" . بما قد يوحى أن الهدف هو الإبقاء على هذه التناقضات بدون حل . فليس من المعقول أن يكون هناك تحالف بين قاهر ومقهور وبين مستغل ومُستغل . وأصبحت صيغة التحالف تستخدم لتثبيت أقدام الثورة المضادة وضرب الإنجازات التى تحققت من خلال نضال الجماهير ، ومن خلال العمل الثورى العظيم لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . أن التناقض الصارخ بين الشعارات الاشتراكية المطروحة والحقيقة التى نعيش فيها وتحس بها الجماهير يدمر ثقتنا بالقوانين والنظم الإدارية القائمة[1] .

أننا ونحن نؤمن بصيغة التحالف فإنما تهدف إلى أن يكون هذا التحالف لمصلحة الجماهير العريضة من عمال وفلاحين ومثقفين ورأسمالية وطنيه منتجه ولا يكون ستاراً لتحقيق مصالح الأقلية . بل إنه لكى يكون هناك تحالف مؤثراً وفعالاً فمن الضرورى أن تكون على رأسه قيادة ثوريه تعى دروس الماضى وتعرف حقائق الواقع ولها تصور لإمكانيات المستقبل .

(*) راجع : المنبر الاشتراكي الناصري : بيان أمام لجنة العمل السياسي ، ٢٣ فبراير ١٩٧٦ .

ما هو موقف الاشتراكية فى الفكر الناصرى من الأممية والإنسانية ؟.

إن فكرة الناصرية بارتباطها مع خلاصة الفكر الانسانى المتحرر تسهم فى إشراك الأمة العربية فى مجالات التطور الانسانى العام . ورغم أن الاشتراك فى الحياة العالمية والدولية هو قائم بفعل تطور الآلة ووسائل الإنتاج ووسائل النقل ، إنما الاشتراكية تحدد نوعيه التفاعل التقدمية وتضمن نمو الجوانب الايجابيه فى التأثر والتأثير فى هذا المجال . لأنه ليس المهم أن يكون لوطننا علاقات دوليه ، إذ أن الأهم أن تؤدى علاقاتنا الدولية إلى تزايد فى تحرير الشعوب ومساواتها على أساس مبادئ تقدميه واضحة تهدف إلى السعادة الحقيقية للإنسان والى علاقات إنسانيه سليمة . فالانطواء على الذات القومية لم يعد وارداً فى هذا العصر، بالإضافة إلى أن الانطواء يكتب فى الأمة كما يكتب فى الفرد طاقات الانطلاق وإمكانيات العطاء . إن الاشتراكية الناصرية تحدد موقف الوطن العربى فى العالم ، على أساس تمكينه من اقتحام الآفاق الجديدة واستيعابها من صهر الأفكار الجديدة وجعلها جزءاً من التراث الحضارى الذى منه نستمد القوة المادية والمعنوية والتى تمكننا أن نواجه تحديات الجيل الذى نحن منه .

والاشتراكية الناصرية تعمل على أن يكون استيعاب العرب للتراث الانسانى استيعاب مُركز ومُلتزم . وهذا يعنى أن ما نستوعبه يجب أن ينصب متفاعلاً مع ما عندنا . وهذا يعنى بالتالى أن علينا أن نعرف وندقق فيما عندنا وفيما يمكن أن نعطيه للتراث الانسانى .

على ضوء هذا تسعى الاشتراكية الناصرية إلى تحديد نقطة الانطلاق وضبطها وحمايتها ، حتى لا يؤدى انجذابنا إلى تيارات الفكر الإنساني إلى انقطاعنا عن تراثنا القومى الذى هو فى الواقع جزء لا يتجزأ من التراث الانسانى . المشكلة التى تحدثت عند بعض الاشتراكيين العرب أنهم فى انجذابهم تخلوا عن نقطة الانطلاق لوجودهم ، فكانوا رغم صحة المبادئ التى انجذبوا إلى عديمى التأثير المباشر على مجتمعاتهم ، وربط تطور مجتمعاتهم مع نمو هذه المبادئ ونجاحها . وكان من نتائج هذا الانقطاع أن بعض الاشتراكيين أعطوا مدلولاً خاطئاً عن الاشتراكية للجماهير والفئات التقدمية التى لها مصلحة فى نجاح الاشتراكية كنظام ومنهج للحياة . وأعتقد البعض أنهم هم وحدهم القوة الاشتراكية فى الوطن العربى . والى حد كبير ظهرت الاشتراكية فى الوطن العربى معزولة عن التجربة القومية والشعبية ، وظهرت وكأنها غريبة عن حياة الشعب وأمانيه.

أدى هذا الانقطاع إلى رد فعل لدى الفئات اليمينية التي حاولت أن تأخذ من هذا التزييف لمعنى الاشتراكية سلاحاً يطعنون بواسطته الاشتراكية ، ليخدموا عن سوء نيه أو حسن نية المآرب الرجعية والاستعمارية فى وطننا ، والتى لا يحطمها فى المدى الطويل سوى التزام علمي واع للاشتراكية حسب الواقع العربى .

وكان من جراء هذا الانفعال عن بعض الفئات اليمينية ، أن تعرضت الحركة القومية العربية إلى تسرب النفعيين والانتهازيين الذين تبنوا شعاراتها المرحلية كى يضربوا حقيقة أهدافها ويحرفوا جوهر القومية العربية

ومحتواها العقائدى والشعبى . فكان يظهر بين حين وآخر تيارات تقول بأن الحركة القومية يجب أن تؤجل والبحث عن النظام الذى تريد إقامته . وتيارات تقول بأن الاشتراكية تفرق بين الشعب الواحد . وفئات تقول بأن الاشتراكية هي مظهر آخر من الفلسفة المستوردة أو المقتبسة. وأقتنع بعض المخلصين بهذه التيارات التى أطلقتها الرجعية العربية فى أوساط الحركة القومية ، لعل إطلاقها يؤخر تكامل الوعى وتزايده فى الأوساط العامة.

كان لابد إزاء هذان الاتجاهان : الاتجاه الأممى المفهوم الاشتراكي ، والاتجاه الإنطوانى القومية ، والرواسب التى تتفرع عنهما ، أن يعمل الاشتراكيون الناصريون على تصحيحها بشكل حاسم وسريع.

والتصحيح فى هذا المضمار يعنى توضيح المفهوم الإشتراكى للقومية ، وللإنسانية ، وللأممية . وعندما تتوضح هذه المفاهيم يصبح بإمكاننا أن نحدد موقف الاشتراكية الناصرية منها. فالاشتراكية نتيجة اقتناع يتوصل إليه الإنسان عندما يريد أن يبلور نزعته التقدمية ، وأن يحقق أمانيه الحقيقية . أما القومية فهى تعبير عن وجود قائم وعن كيان ذات خصائص معينه ومصير واحد ينتمى إليه الإنسان انتماء وجودياً . الفرق إذن فى هذا المضمار بين القومية والإشتراكيه بالنسبة الإنسان العربى ، أن القومية هى دليل انتسابه إلى كيان والى أمة ، وبالتالي مناسبة لوجوده . أما الاشتراكية فى تلازم مجرد الوجود ، ولكن تتكون نتيجة اقتناع يولده حس بمسئولية تحسين وتحرير الإطار القومى وجعله يتوافق مع مستلزمات المجتمع الأمثل . الاشتراكية نظرياً هى الوجود المثل ومرحلياً هى التحقيق الأفضل .

من هنا يتضح لنا أنه ليس هناك تناقض بين القومية والاشتراكية ، كما يدعى الأمميون والقوميون المنغلقون، بل بالعكس فإن الوجود القومى لا يمكن أن يصبح حياً وسليماً إلا من خلال تصميمه على تحقيق الاشتراكية . والاشتراكية لا يمكن أن تتحقق إلا إذا ربطت ذاتها بشكل عضوى متماسك مع الحقائق القائمة فى الأمة .

ومن جهة أخرى فالإشتراكيه الناصرية لا تقر أن القومية هى مذهب ، بل تصر على أنها وجود وكيان . فالقومية إذا تخطت كونها انتماء ووجود ، فإنها تهدد القيم الانسانيه الكامنة فى القومية العربية . فالقومية كمذهب فلسفى هى فلسفه مقفلة ، وهذا يؤدى إلى إقصاء العقل عن فاعليته ، وتؤدى إلى تحريك الغرائز لحماية الانعزال . فالمذهبية القومية تعتمد على نظريات عرقيه وطائفيه ، وتجعل من الغرور القومي أداه لإثبات الوجود . وينتج عن هذا مفاهيم تشوه معنى الكرامة القومية ، وتكبت عند الشعب طاقاته لحل مشاكله الاساسية . فالمذهبية القومية ترى الشعب بشكل مبهم وكلى ، بينما الاشتراكية ترى الشعب نتيجة تفاعل أفراده . الفرق أنه بالمفهوم الاشتراكى يصبح الإنسان الخلية الأساسية للأمة ، بينما بالمفهوم القومى المذهبى المقفل يكون الإنسان مجرد أداه .

يتراءى لنا من خلال هذا الالتباس اللفظي والفكرى الذى نتج عن الانفعال المتبادل . فالقومية المذهبية استمرت بحكم الانفعال ضد الاشتراكية الأممية . الاشتراكية الأممية رأت فى القومية حق الإنسان فى التفاعل مع التراث والحضارة العالميين . من هنا استرسال التيارات فى اتجاههما وخطورتهما .

الاشتراكية تجد فى الوجود القومى انقطاعاً فى الوجود الانسانى وجزء لا يتجزأ منه . ودور الاشتراكية فى هذا السبيل هو إغناء الوجود القومى وتفجير طاقته الخيرة المبدعة . كمساهمة فى إغناء التراث الانسانى الذى هو بدوره حصيلة تفاعل القطاعات القومية فى العالم . الاشتراكية فى الوطن العربى تختلف عن الاشتراكية الأممية فى هذا الموضوع ، لأنها تؤمن بأن الوحدة الانسانيه كامنة فى العلاقة التلقائية بين الوحدات البشرية المتنوعة لا نتيجة فرض تجربة معينه مقياساً وحيداً لصحة العمل الاشتراكى .

الاشتراكية فى الوطن العربى تنسق التجربة العربية مع تجارب الإنسان فى كل العالم . بينما الاشتراكية الأممية تربط التجربة العربية بتجربة تعتقد أنها أكثر تقدماً ، وبالتالى لها صفات وحق القيادة . الوحدة الإنسانية هي التي يشعر الإنسان أنه ساهم فيها . الوحدة الأممية هي تأمين وحدة شكليه دون اعتبار لمضمون هذه الوحدة ووجودها .

الاشتراكية فى الوطن العربى تؤمن للإنسان العربى أن يرى فى الانسانيه نفساً من ذاته . وعندما يرى ذلك يصبح أكثر استعداداً لتقبل وفهم التراث الانسانى . وعند لا يرى الإنسان العربى فى التراث الانسانى انعكاساً لوجوده ، أو عندما لا تتكون الوحدة الإنسانية – ولو جزئياً – من وجوده يتولد عنده مركب النقص فتضعف ثقته فى ذاته ، فيستسلم ولا يعود يعطى أو يبدع.